الإســـلام
فى حوض البحـــر الأبيـض
٢

أ ــ المسلمون يدخلون حوض البحر الأبيض :

فى السنة الثامنة للهجرة ، وبينما كان الرسول (ﷺ) يتأهب لفتح مكة ، رأى أن يبعث بعثاً من المسلمين إلى بلاد الغساسنة الذين قتلوا رسوله الذى بعثه إليهم قبل ذلك بقليل ، وليضع يده على مؤتة ، وكان أهلها يصنعون صنفاً ممتازاً من السيوف يعرف فى النصوص العربية بالسيوف المشرفية . ولم توفق هذه الحملة فيما قصدت إليه ، لأن الحامية البيزنطية المعسكرة وراء الأردن ، يؤيدها عدد من قبائل عرب الشام الموالية للروم ، ففرت للقاء المسلمين ــ وكان عددهم ثلاثة آلاف يقودهم زيد بن حارثة ــ وأنزلت برجالها هزيمة شديدة ، وقتل قائدها زيد وخلفه جعفر بن أبى طالب فعبدالله ابن رواحة فقتلا ، ولم تنج بقية البعث الإسلامى إلا بفضل مهارة خالد بن الوليد ، فقد عرف كيف ينسحب ببقية المسلمين عائدا إلى المدينة[1] . وكان هذا أول لقاء بين الإسلام وعالم البحر الأبيض المتوسط ، وهو لقاء لا ينبىء بما كان بعد ذلك من غلبة المسلمين على شواطىء ذلك البحر ، ولكنه يدل على أى حال على اتجاه نظر الرسول إلى الشمال ، وإلى أن الامتداد خارج الجزيرة العربية كان فى حسابه قبل فتح مكة .

---

(١) ابن الأثير : الكامل (المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٤٩) جـ ٢ ، ص١٥٨ــ١٦٠ .

وقد ختم الرسول أعماله العسكرية بغزوة «تبوك» عام ٩ للهجرة ، وهى غزوة يسيرة لم يحدث فيها قتال خلا ما كان من سير خالد بن الوليد إلى دومة الجندل وأسره صاحبها[١]، ولكنها عظيمة الدلالة ، فهى آخر خطوات التوسع الإسلامى فى حياة الرسول ، وهى كالإشارة إلى الطريق الذى تعين على خلفائه اتباعه فى السير براية الإسلام ، ومصداق ذلك أن الرسول لم يقنع بالنتيجة التى وصل إليها من مسيره إلى تبوك ، ورأى معاودة الكرة وأعد حملة جديدة قرر تسييرها إلى الشام وجعل عليها أسامة بن زيد بن حارثة الذى قتل فى غزوة مؤتة ، ولكن الوفاة أعجلته عن إنفاذها . وتولى أبو بكر فرأى أن يكمل ما بدأ به الرسول من تسيير بعث أسامة بن زيد ، ولكن حروب الردة شغلته عن ذلك[٢] ، فلم يستطع توجيه الجند المسلمين نحو الشام إلا بعد الفراغ من أمر المرتدين .

ففى أوائل صفر سنة ١٣ للهجرة سارت نحو الشمال ثلاثة جيوش إسلامية لا يزيد مجموع رجالها عن ٢٤ ألف مقاتل ، يقودها ثلاثة من شباب قادة المسلمين هم : عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل ابن حسنة ، وأمدهم أبو بكر بنفر بعد نفر من المسلمين . وكان أبو عبيدة عامر بن الجراح على بعض هذه الإمدادات ، واستطاع أولئك القادة ــ بمعاونة خالد بن الوليد الذى خف لعونهم من العراق ــ أن يتموا فتح الشام فى سنتين (٦٣٤ ــ ٦٣٦) ، واستقر عامل المسلمين فى دمشق مكان عامل البيزنطيين ، واستولى المسلمون على ساحل البحر الأبيض وكبار موانيه حتى

---

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٨٩ ــ ١٩١ .

(٢) كان أبو بكر يدرك استحالة إنفاذ بعث أسامة إلى الشام ، ولكنه أصر على تسييره رغم معارضة شديدة من المسلمين ومن عمر بن الخطاب نفسه . وكان غرض أبى بكر أن يشعر العرب أن لديه من القوة ما يسمح له بإنفاذ بعث كبير إلى الشام ، وكان لذلك أثره فى رد الكثيرين منهم عن الارتداد كما قال ابن الأثير نفسه ، وقد اختصر أسامة بعثه ، فلم تزد مدته عن أربعين يوماً ، ولم يفعل أكثر من الإغارة على بعض قبائل قضاعة ، والغالب أن ذلك كله كان بالاتفاق مع أبى بكر . انظر : ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

أنطاكية فى الشمال ، وكانت أكبر بلاد ساحل الشام وموانيه ، وكان فيها كذلك أعظم بطريركياته مقاماً وأبعدها أثراً فى تاريخ المسيحية فى هذه العصور .

بهذا الفتح دخلت الدولة الإسلامية نطاق البحر الأبيض المتوسط ، ووضعت قدما ثابتة فى سوريا ، وسيطرت على موانيها ، وكانت أحفل ثغور البحر الأبيض بالتجارة والسفن وأكثرها حيوية ونشاطاً على ما ذكرناه ؛ ودخل فى خدمة المسلمين هذا الشعب الذى كان يجمع بين يديه زمام جانب عظيم من النشاط التجارى فى البحر الأبيض .

ب ــ المسلمون يسيطرون على شواطىء البحر الأبيض فى الشرق والغرب :

وقد رأينا كيف أن الدولة الإسلامية اتجهت نحو البحر الأبيض غداة قيامها ، ولسنا نستطيع تعليل هذا الاندفاع نحو حوض هذا البحر بمجرد الرغبة فى التوسع ونشر الإسلام ، أو أنه كان نتيجة طبيعية لدخول «روم العرب» فى طاعة الإسلام ؛ لأن العرب اتجهوا لغزو بلاد الدولة الفارسية قبل أن يشرعوا فى فتوح الشام ، ولكنهم لم يبدءوا فى فتوح فارس إلا بعد أن فرغوا من أمر الشام ، وفى نفس الوقت الذى بدأت جيوشهم تلتحم فيه مع جيوش الفرس كان عمرو بن العاص يستأذن عمر بن الخطاب فى المسير لفتح بلد بحرى متوسطى آخر ، هو مصر . أى أن شواطىء البحر الأبيض اجتذبت العرب بنفس القوة التى اجتذبت بها الإغريق القدامى والرومان والجرمان من بعدهم .

وقد استمر الاندفاع الإسلامى نحو شواطىء البحر الأبيض على صورة متصلة النشاط والقوة ، لم تتوقف إلا أمام العقبات المانعة التى استحال عليهم تخطيها بالفعل ، مما يدل على أن دافعاً قوياً كان يدفع المسلمين إلى السيطرة على شواطىء هذا البحر والقبض على نواصيه من الشرق والغرب ، لا يكاد يصرفهم عن إتمام هذه السيطرة شىء . فقد أتم العرب فتح مصر عام

٢٢ هـ ــ ٦٤٢م باستيلائهم على الإسكندرية ، وكانوا مستطيعين بعد ذلك التصعيد مع مجرى النيل إلى النوبة والسودان ، وكانوا واجدين فى الاتجاه نحو الجنوب بلاداً واسعة وفتوحاً عظيمة القيمة لهم خاصة ، ولكننا نجدهم بدلا من ذلك يستطردون مع ساحل البحر نحو برقة ، عابرين صحراء واسعة ، مستهدفين لكثير من المخاطر ؛ ونجدهم بعد استيلائهم على برقة يسيرون بحذاء سواحل طرابلس الطويلة حتى يصلوا إلى إفريقية ، وهى ما يعرف اليوم بتونس ، حيث يخوضون معارك حامية تنتهى بسيادتهم على هذا القطر الصغير ؛ ثم يمضون يشقون طريقهم على سواحل المغرب فى عنف وصبر واحتمال مدى سبعين سنة حتى نجدهم عند سبتة عام ٩١ هـ ــ ٧٠٩م . وبعد هدنة قصيرة يعود البحر الأبيض فيجذبهم من جديد فيعبرون إلى الأندلس ، وفى أقل من عامين نجدهم عند جبال البرتات ، وهى المعروفة خطأ بالبرانس ؛ ثم يسترسلون مرة أخرى فى حماس وحمية ، فيحتلون شواطىء بروفانس حتى مصب الرون ، ويتخذون بلدة أربونة Narbona مركزاً لهم ، وينتقل مركز النشاط الإسلامى كله إلى هذه الناحية خلال عصر الولاة الأندلسيين ، حتى إن بعضهم كان يقيم فيها دون قرطبة ، ولم يتوقف هذا التدفق العنيف إلا بعد هزيمة بلاط الشهداء فيما بين تور وبواتييه عام ١١٤ هـ ــ ٧٣٢م . ويصر المسلمون رغم ذلك على الاستمساك بما بقى فى أيديهم من نواحى غالة الجنوبية ، فلا تسقط أربونة من أيديهم إلا بعد عشرين سنة كلها كفاح وصراع ، ويتشبث المسلمون بعد ذلك بشعاب جبال البرت وما يلاصقها من بلاد الحدود الشمالية الغربية الإيبيرية ، فلا ينتهى أمزهم منها إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى[1] .

وليس بغريب والحالة هذه أن نقرأ فى بعض المراجع أن موسى بن نصير ــ عندما أوغل فى الأندلس ــ قرر أن يخترق أوروبا مساحلا البحر

---

(١) المقرى : نفح ، جـ ١ ، ص ١٧٥ .

الأبيض حتى يصل إلى القسطنطينية ، وأن تفكيره هذا روع الخليفة الوليد ابن عبدالملك فكتب إليه يستقدمه وينهاه عن «التغرير بالمسلمين» ، ولم ينته المسلمون رغم ذلك ، بل ظلوا يضربون فى طريقهم حتى وجدوا ــ كما يقول الرازى ــ حجراً قد نقش عليه : «يا بنى إسماعيل ، انتهيتم فارجعوا» ، وهى رواية أسطورية الطابع ولكنها ذات دلالة نفسية ومعنى لا يخلو من عمق ، وإذا نحن جمعناها إلى الرواية السابقة ؛ وحاولنا تفسيرهما على ضوء الاتجاه العام للفتوح العربية ناحية الغرب ، استطعنا أن نقول إن أمثال هذا الكلام ليست مجرد حديث أساطير ، بل هى تصوير لما كان المسلمون يسعون نحوه عن إحساس واع أو عن نزوع ساذج متأثر بذلك الدافع التاريخى البعيد الذى كان يحرك العرب فى هذا الاتجاه ، دون أن نجد فيما بين أيدينا من المعلومات من خطط الفتوح العربية ما يفسره ويشرحه .

جـ ــ العرب فى جنوب غالة وبروفانس :

تعتبر أعمال المسلمين العسكرية شمالى جبال البرت وفى منطقة بروفانس حلقة متممة لنشاطهم فى حوض البحر الأبيض الغربى ، ولما كانت معلوماتنا قليلة فى هذه الناحية . فقد رأيت أن أورد موجزاً لنشاط المسلمين فى هذا الميدان .

بدأ العرب الامتداد فيما يلى جبال البرت فى ولاية عبدالعزيز بن موسى ، فقد استولى المسلمون فى عهده على جرونة Girona وأربونة Narbona سنة ٩٦ ــ ٧١٥م ثم ارتد المسلمون عنهما ، وعاد السمح بن مالك الخولانى فاستولى عليهما واتجه نحو طولوشة Tolosa ١٠٠ ــ ٧١٨ ، وعلى مقربة من هذا البلد الأخير التقى بجيش فرنجى يقوده أودون Eude دوق أقطانية Aquitania وانهزم الجيش الإسلامى وقتل السمح نفسه ٨ ذى الحجة

١٠٢ ــ ٩ يونيو ٧٢١ ، وعاد المسلمون إلى أربونة فتحصنوا بها . ثم نهضوا من جديد يقودهم عنبسة بن سحيم الكلبى خليفة السمح فاستولوا على قرقشونة Carcasona ونيمة Noemasum ، ثم وصل عنبسة إلى وادى الرون وصعد معه حتى وصل إلى نهر الساءون ودخل إقليم بورجونيا واستولى على أوتان Autun ١٠٦ ــ ٧٢٥ ونهب الإقليم كله دون أن يلقى مقاومة تذكر .

وبعد ذلك بسبع سنوات قام العرب بأقوى حملاتهم فى غالة يقودها عبدالرحمن الغافقى ، وقد بدأ يحشد قواه فى بنبلونة Pampelona فى صيف ٧٣٢/١١٣ وسار فاستولى على تور ، وتقدم نحو الشمال ، وعجل بالمسير نحوه شارل مارتل (قارله) فى جيش حافل، وكان اللقاء الحاسم على ١٧ كيلومترا شمالى تور عند موضع يغلب على الظن أنه مواسيه لاباتاى Moissais la Bataille الحالى فى منطقة يقع وسطها قصر قديم هو المعروف ببلاط الشهداء فى رمضان ١١٤ ــ أكتوبر ٧٣٢ حيث لقيت الجيوش الإسلامية هزيمة كبيرة ، واستشهد الغافقى . ولم تنته جهود المسلمين فيما وراء البرت بعد «بلاط الشهداء» ، إذ ظلت أربونة فى أيديهم واستمر نشاطهم فى الجهاد ، فبعد سنتين من «بلاط الشهداء» ١١٦ ــ ٧٣٤ قام يوسف الفهرى عامل الأندلس بغارة كبيرة فى وادى الرون ، وعبر هذا النهر واستولى على آرل وسان ريمى بروفانس Saint Rémyde Provence وصخرة ابنيون Avignon ؛ غير أن شارل مارتل استرد منهم هذا البلد الأخير بمعاونة قوات برغندية ، ثم أقبل يحاصر أربونة ، فسار عامل الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى لنجدة البلد ، ولكنه انهزم سنة ١١٧ ــ ٧٣٧ ، وحاصر شارل مارتل أربونة دون توفيق كبير . واستمرت أربونة فى يد العرب حتى سنة ١٣٣ ــ ٧٥١ حينما استولى عليها بيبين القصير أول ملوك البيت الفرنجى الكارولنجى . وقد بقيت شمال البرت بعد ذلك جماعات كثيرة من المسلمين متفرقة بين بروفانس والأوفرنى ، ووصل بعضها إلى وديان سويسرا

الجنوبية ، ولا زالت آثار هذه الجماعات الإسلامية باقية فى تلك النواحى إلى اليوم[1] .

هذا ولا حاجة بنا هنا إلى الإسهاب فيما هو معروف من اجتهاد المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية محتملين فى ذلك من العناء والخسائر ما لم يكن لهم به عهد فى ميدان آخر ، وهم لم يكونوا ــ كما نعلم ــ أهل بحار ولا عهد لهم بمعاناة الملاحة وأخطارها ، ولكن اندفاعهم نحو البحر الأبيض ورغبتهم فى السيطرة على شواطئه هون عليهم ما صادفوا من الأهوال بين أمواجه ، فنجد رجالا منهم لم يسبق لهم أن ساروا بفلك فى ماء يقودون المعارك البحرية على ظهور السفن ويكسبون بعضها ، كما فعل عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى غزوة ذات الصوارى

وفيما بين سنتى ٤٨ ــ ٦٦٨ و٦٦ ــ ٦٨٥ نجد سفن المسلمين تخترق بحر إيجه والدردنيل ، ورجالهم يحتلون جزيرة سيزيكا فى بحر مرمرة ويواترون الحملات على السقطنطينية المرة تلوة المرة فى إصرار بالغ ، فلا يرتدون إلا بعد أن تبلغ بهم الخسائر مبلغاً يستحيل عليهم الاستمرار معه ، وبعد أن تفعل النار اليونانية بسفنهم الأفاعيل .

---

(١) راجع :

ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة دو زى) ج ٢ ، ص٢٢ ــ ٣٣ .

الأخبار المجموعة (طبعة لافريتى ألكانتا ر١) ص٢٢ ــ ٤٧ .

ابن القوطية : افتتاح الأندلس (مدريد ١٩٠٦) ، ص١٤ ــ ٤٠ .

ابن عبدالحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (طبعة تورى) ، ص٢٠٤ ــ ٢٢٠ .

المقرى : نفح الطيب (طبعة دو زى وراتيت وكريل ودوجا) ، ج ١ ، ص١٦٠ ــ ١٧٥ .

M. Reinaud: Invasions des Sarrazins en France, et de France en Savoie, en Piémokt et dans la Suisse pendant les 8,9, et 10 siecles de notre ère. Paris, 1836.

H. Zottenberg: Invasions des Sarrazins dans le Languedoc d'après les historiens, musulmans do Devic et Vaisssette: Hist. général du Languedoc. Toulouse, 1875 II pp. 549-558

F. Godera: Estudios Arabes, vol.

G. Lokys: Die Kamfe der Arabern mit der Karolingern bis zum Tode Ludwig, II. Heidelberg, 1906

Lévi — Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, vol. 1 (Le Caire 1944) pp. 37-42.

سبع سنوات متوالية : يقضون الشتاء فى البحر ــ أى فى الجزائر ــ كما تقول النصوص ، ثم يهبون لمهاجمة القسطنطينية من جديد فى الربيع والصيف ، ثم يمنى أسطولهم بكارثة كبرى عند مروره فيما بين قبرص والشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى سنة ٥٨ ــ ٦٧٧ . وفى أثناء هذا الكفاح الطويل سيطر العرب تماماً على شواطىء الجزر الكبرى والصغرى فى هذا الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، وأخرجوه عن سيطرة البيزنطيين وغيروا الوضع السياسى فيه تماماً . ولم تكن هذه هى أخرى محاولات العرب للاستيلاء على السقطنطينية ، فقد تجدد الجهد فيما بين ٩٦ ــ ٧١٥ و٩٨ ــ ٧١٧ فى عهد سليمان بن عبدالملك ، واستنفد المسلمون جهدهم براً وبحراً دون توفيق .

ولم يحاول المسلمون بعد ذلك الاستيلاء على القسطنطينية ، ولكن شواطىء البحر الأبيض ظلت فى أيديهم . أى أن الدولة الإسلامية اتجهت اتجاهاً بحرياً من زمن مبكر ، وقد انتهى بها هذا الاتجاه إلى شواطىء البحر الأبيض إلى التحول إلى دولة بحرية متوسطية طوال العصر الأموى . وهنا يحسن أن نقف عند هذه الحقيقة ملياً ؛ لأنها تكشف عن ناحية هامة ذات أصداء بعيدة فى تاريخ الدولة الإسلامية .

د ــ بنو عبد شمس والشام :

عندما ندرس أوليات اتجاه الحركة الإسلامية نحو الشمال ، يبدو لنا أن الهدف الأول كان السيطرة على «روم العرب»[1] أو العرب المتنصرة[2] ، وهى مجموعة من القبائل كانت تسكن المنطقة الواقعة بين حدود الحجاز

(١) انظر مثلا : الطبرى ، طبعة دى خويه ، ج ١ ، ص ٢١٠١ ، وأبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٧ .
(٢) ابن الاثير : (ط. نورنبرج) ج ٢. ، ص ٧٩ أو ٢١١ .
والمسعودى : التنبية والإشراف ، ص ٢٣٠ .

الشمالية المتعارف عليها عند كتاب العرب[1] : جذام وبلى وعذرة وبهراء وكلب ولخم وعاملة ، ومجموعة القبائل القضاعية التى تسمى عادة ببنى غسان[2] . ونتبين أيضاً أن اتجاه الرسول نحو إخضاع هذه القبائل من زمن مبكر جداً من السنة الخامسة للهجرة ــ هو الذى أفضى بالعرب إلى الاشتباك بالروم بعد ذلك ، ومن ثم يبدو أن ذلك الاشتباك مع الروم قد جاء مصادفة أو استرسالا طبيعياً غير مقصود[3] .

بيد أن الدارس المحقق لا يسعه إلا أن يتبين أن للموضوع أصولا أبعد من ذلك ، أصولا تتصل بعلاقات بعيدة بين فريق من العرب وبلاد الشام ، فريق كانت له بهذه البلاد خبرة ومعرفة قديمتان قبل الإسلام . فلم تكد دولة الإسلام تستقر وتتجه أنظارها إلى التوسع ، حتى اجتهدوا فى توجيهه نحو هذه الوجهة ، ويسروا لجند الإسلام فتح الشام ، وقاموا بعد ذلك بتثبيت أقدامه فيه ، بل عملوا على نقل الدولة الإسلامية كلها إليه ، ذلك هو فريق بنى أمية ، بنى عبدالدار .

ذلك أن جل اهتمام بنى عبدالدار قبل الإسلام كان بشئون التجارة والمال ، تاركين لبنى عبدالمطلب ما كانوا يطمحون إليه دائماً من جاه روحى على العرب يأتيهم من القيام بشئون الكعبة والحجاج . ولقد كانت قريش كلها تسهم فى تجارة الشام ، ولكن بنى أمية كانوا ينظمونها ويوجهونها ويتولون قيادة القوافل الخارجية بالمتاجر ، وإذا أخذنا قافلة أبى سفيان ــ التى تعرض لها المسلمون سنة ٢ هجرية فكان من ذلك غزوة

---

(١) كان جغرافيو العرب يرون أن أقصى مدن الحجاز إلى الشمال هى خيبر وتيماء وفدك ، وأن الشام يبدأ بعد خيبر بقليل ، وكان يرون أن وادى القرى لا يدخل فى حدود الحجاز .

Cf: M.A. Cheira: La Lutte entre arabes et Byzantins (Alexandrie, 1947) p. 20

(٢) المصدر والصفحة .

(٣) راجع عن المناقشة فى هذا الموضوع : De Goeje: Mémoire sur la conquéte de la Syrie. 2e éd. Leiden, 1900. ds Mémoires de l'histoire et la Géographie orientales. No 2. p. 10. 2qq.

Caetani: Annali dell Islam. Milan, 1905-1926. anno 5, No. 4.

بدر ــ أساساً ، رأينا أن معظم أموال غيرها كانت للأمويين وكان رؤساء القافلة كلهم أمويين[1] ، مما يدل على أن تجارة قريش مع الشام كانت فى الواقع أموية[2] ، وأن بنى عبدالدار كانوا على صلات وثيقة بالشام ونواحيه ، وكان فيهم ميل نحو الاتجاه نحو هذه البلاد ؛ ومن الطبيعى والحالة هذه أن يكونوا أشد العرب اجتهاداً فى اجتذاب الإسلام إليه عندما أتيحت الفرصة فى ظل الإسلام .

وإن المتأمل لأحوال قريش قبل الإسلام ليرى بوضوح أن بنى عبد شمس كانوا دائماً أهل السياسة والتوجيه العام ، فى حين كان هَمُّ بنى هاشم أمور الكعبة والحجاج وما إليها من المسائل الروحية . وإن الإنسان ليدهش ، عندما يدرس فريقى قريش عندما وقع «حلف الفضول» فيجد أن معظم قادة العرب بعد الإسلام كانوا من فريق الأحلاف الموالين للعبسميين دون الهاشميين[3] ، وربما جاء ذلك من اهتمام بنى عبد شمس بالتجارة والسفر ، وهو اهتمام ربما فسر لنا دوافعه ابن هشام بقوله : «إن عبد شمس كان رجلا سفاراً قلما يقيم بمكة ، وكان مقلا ذا ولد ، وكان هاشم موسراً» .

وكانت معظم تجارة عبد شمس ومن معه مع الشام ، وكان لهم عند ولاة البيزنطيين مكان مرموق ، ودليل ذلك ما يقال من أن عثمان بن عفان سفر لقريش عند عامل الروم على بصرى فمنحه لقب «فيلارخوس»[1] ، ودليله أيضاً ما حدث بعد الإسلام من سؤال قيصر لأبى سفيان عن حال النبى ، مما

---

(١) انظر التفصيل فى «مغازى الواقدى» ، ط. فون كريمر (كلكتا ، ١٨٥٥ ــ ١٨٥٦) ، ص١٩٨ .

(٢) لم يأتنا ابن إسحاق بشىء يثبت ما ذهب إليه من أن هاشم بن عبدمناف هو الذى استن للعرب رحلة الشتاء والصيف (ابن هشام : سيرة الرسول ، جـ ١ ، ص١٤٧) لأن ما يذكره هنا لا يتفق مع سياق ثه .

(٣) «أحلاف» بنى عبدالدار ــ عند الخلاف الذى وقع بينهم وبين بنى عبدالمطلب على الرياسة بمكة ــ هم : بنو مخزوم وبنوسهم وبنو جمح وبنو عدى بن كعب (ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص١٤٣) .

(٤) انظر : إبراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون (القاهرة ١٩٥٣) ، ص٣٤ . وقد استند إلى عبارة لكمرر ، وهذا الأخير لم يأتنا بمراجعه .

يدل على أنه كان محل ثقته ، أو أن الروم كانوا يشعرون أنه قريب منهم على أى حال[1] . ولنضف إلى ذلك أن الرسول الكريم كان يطمئن إلى بنى عبدالدار وأحلافهم ويعهد إليهم فى الوظائف الإدارية وشئون الدولة ، وكذلك كان أبو بكر وعمر من بعده ، فضلا عن عثمان الذى أسرف فى ذلك إسرافاً أدى إلى اتهامه بالميل الصريح لأهل بيته ، وهم بنو أمية وبنو الحكم . وهذه الكفاية فى ذاتها نتيجة طبيعية لاشتغالهم بأمور التجارة والمال ، فإن ذلك يحتاج إلى عقلية عملية دافعية كالإدارة تماماً ، ولا شك كذلك فى أن كفاية بنى أمية فى الأمور الإدارية نتجت عن صلاتهم الطويلة بالروم وترددهم على بلادهم .

فإذا بدأت فتوح الشام رأينا بنى أبى سفيان وأحلافهم ــ بنى مخزوم وبنى سهم وبنى جمح وبنى عدى بن كعب ــ فى القيادات والعمالات من أول الأمر ، وخاصة فيما يتصل بالشام منها ، وقد كان الرسول أول من بدأ ذلك ؛ لأنه كان يعلم بما بين بنى أمية والكثير من قبائل عرب الروم ــ مثل بلى ــ من القرابة والرحم ، فهو الذى ولى عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك[2]، بل إنه أرسل عمرو بن العاص قائداً على حملة قصدت أرض بلى وعذرة ، وهما من روم العرب ؛ لأن أم عمرو كانت من بلى ، وعندما طلب عمرو المدد أرسل الرسول إليه بعثاً على رأسه أبو عبيدة بن الجراح وفيه أبو بكر وعمرو ، وأصر عمرو بن العاص على قيادة الحملة كلها ــ رغم ذلك ، فرضخ له أبو عبيدة ، وصلى عمرو به وبعمر وبأبى بكر ولم يستنكر الرسول ذلك ، علماً منه بما كان لهذا السهمى الشاب من صلات ورحم بأهل الناحية التى يدور حولها الصراع[3] .

---

(١) ابن الأثير ، جـ ٢ ، ص١٤٤ ــ ١٤٥ .

(٢) المقريزى : النزاع والتخاصم ، ص٣٢ .

(٣) ابن الأثير ، جـ ٢ ، ص١٥٦ ــ ١٥٧ .

فإذا استطردنا مع فتوح الشام وجدنا رجالا من نبى أمية وأحلافهم فى القيادات من أول الأمر ، بل تبين أبو بكر أن غيرهم لا يصلح لقيادة الحروب فى الشام لجهلهم بنواحيه[1] ، وأن بنى أمية به أعرف ، فبعث يزيد ابن أبى سفيان وأردفه بأخيه معاوية فكان هذا أول الفتح[2] . ثم إن المتتبع لسير القتال فى الشام واتجاهات العرب والمراكز التى وجهوا إليها همهم ، والمواقع التى اختاروها للقاء ، كل ذلك يدل على أن قادتهم كانوا يعرفون الشام جيداً ، وأنهم كانوا يسيرون عن معرفة وخبرة . فإذا ذكرنا أن معظم التوجيه ـــ فيما خلا مسير خالد بن الوليد إلى بصرى ـــ كان بيد يزيد بن أبى سفيان وأخيه معاوية وعمرو بن العاص تبينا صدق الحقيقة التى ذكرناها عن أن بنى أمية وأحلافهم هم الذين قادوا جيوش العرب فى الشام ويسروا لهم فتحه ، لسابق خبرتهم به ومعرفتهم بأموره . ويتجلى ذلك بوضوح عندما نجد يزيد بن أبى سفيان عاملا لعمر على معظم الشام بعد وفاة أبى عبيدة ثم يخلفه على عمالته أخوه الأصغر معاوية . ثم يجمع عمر الشام كله لهذا الأخير ، فى نفس الوقت الذى يتجه فيه عمرو بن العاص السهمى ـــ وسهم من أحلاف بنى عبد شمس ـــ لفتح مصر ، أى لاجتذاب المسلمين خطوة أخرى إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط[3] .

---

(١) راجع ما يذكره الطبرى عما حدث لخالد بن سعيد بن العاص فى أول محاولة للعرب لغزو الشام . (الطبرى : تاريخ ، ط. الحسينية بالقاهرة ، ج ٤ ، ص٦) .

(٢) الطبرى : نفس المصدر والصفحة .

(٣) وصلة بنى أمية وأخلاقهم بعمالات الشمال والشام منذ كان الإسلام تستوقف النظر ، ففى حركة الردة مثلا بعث أبو بكر خالد بن سعيد العاص بن أمية إلى مشارف الشام ، وأرسل عمرو بن العاص إلى قضاعة ، وعندما بدأت حركة الفتوح بعث أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام وأردفه بذى الكلاع وعكرمة ابن أبى جهل وعمرو بن العاص والوليد بن عقبة ، «وعقد ليزيد بن أبى سفيان بن حرب على جيش عظيم هو جمهور من انتداب إليه وجهزه عوضاً عن خالد بن الوليد ، وعقد لأبى عبيدة بن الجراح وبعثه إلى حمص ، وأمدَ يزيد بن أبى سفيان بأخيه معاوية بن أبى سفيان ومعه جيش ، فنزل أبو عبيدة الجابية ، ونزل يزيد البلقاء ، ونزل شرحبيل بن حسنة الأردن ، وقيل بصرى ، ونزل عمرو بن العاص الغزيات» . ولم يتغير الأمر كثيرا فى أيام عمرو ، فولى الشام أبا عبيدة فيزيد بن أبى سفيان فمعاوية ، ومصر عمرو بن العاص» . انظر : المقريزى : النزاع والتخاصم ، ص ٥٥ ـــ ٥٦ .

وليس إلى الشك سبيل فى أن علائق بنى عبد شمس بالشام جعلتهم من أصلح العرب لقيادة البعوث الحربية وولاية العمالات ، ونتبين ذلك من أن معظم عمال رسول الله على النواحى كانوا منهم ، وكذلك كان الحال أيام أبى بكر وعمر . وقد علق على ذلك المقريزى بقوله : « فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله ﷺ ولا فى عمال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم ، فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وفتل أمراسهم»[1] . ويؤكد ذلك مرة أخرى ثم يقول : «فإذا كان رسول الله ﷺ قد أس هذا الاساس ، وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد ، كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يمتد فى الولاية أملهم ؟»[2] .

أما فيما يتصل بالشام خاصة فللمقريزى رواية تؤيد هذا المعنى الذى قلناه بصورة تستوقف النظر ، قال فى سياق حديثه عن حروب الردة إن أبان ابن سعيد بن العاص بن أمية كان على البحرين ، وكان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك ، فلما توفى رسول الله ﷺ رجع خالد بن سعيد وأبان وعمرو عن عمالاتهم ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : «مالكم رجعتم عن عمالاتكم ؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله ﷺ ارجعوا إلى أعمالكم» ، فقالوا : «نحن بنو أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ أبداً » ، ثم مضوا إلى الشام وقاتلوا وقتلوا فى مغازيها ، فيقال : «ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتاً»[3] .

---

(١) نفس المصدر ، ص٥٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص٤٧ ــ ٤٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص٤٦ . ولابن الأثير رواية غريبة تدل على أن أبا سفيان وشيعتة كانوا حتى بعد إسلامهم أميل إلى الروم منهم إلى العرب ، فقد كانوا أتناء وقعة اليرموك يفرحون إذا مال الروم على العرب . والرواية ــ ولو أنها عن عبدالله بن الزبير ، وهو مشكوك فى رواياته دائما ــ إلا أنها ذات معنى خاص . ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

هـ ــ أثر علاقات بنى أمية بالشام فى توجيه الدولة الإسلامية نحو البحر :

وخلاصة هذا الكلام أن فرع عبد شمس من قريش اتجه بسبب المنافسة مع بنى عبدالمطلب ــ إلى شئون التجارة والأسفار وأنفق همه فيها ، وأنه صرف جهوده نحو الشمال ، فاتصل بروم العرب ــ أو العرب الضاحية ــ وارتبط بهم بعلاقات مختلفة ما بين تجارة وصداقة وحلف ، ثم اتصل هذا الفرع بالشام وعربه وروومه ، وارتبط مع هؤلاء الأخيرين بعلاقات بعيدة المدى ، جعلته فى موضع الحليف منهم ، وأن أفراد هذا البيت اتخذوا هذه الصداقة مع الروم وسيلة لتيسير شئون تجارتهم المكية التى كانوا يقومون عليها ، وأثروا من وراء ذلك واقتنوا الضياع لا فى الحجاز فقط بل فى الشام أيضاً ، إذ كانت لأبى سفيان ضيعة فى البلقاء فى موضع يسمى بقبش ، وأن هذه الخبرة التجارية ولدت فى أفراد هذا البيت خبرة سياسية جعلتهم أصلح العرب للحكم والإدارة وقيادة الجيوش ، وتجلى ذلك بوضوح على أيام أبى سفيان بن حرب عمدة هذا البيت وقائده فى الكفاح أيام الإسلام الأولى .

وكان سر عدائه وعداء أفراد بيته للإسلام هو الخوف على المصالح التجارية وتلك الرياسة التى صارت لهم على قريش وعلى العرب تبعاً لذلك ، وقد نظروا للإسلام من أول الأمر نظرة مادية موضوعية ، فلم يتنبهوا للنواحى الروحية العاطفية فيه ، وظلوا على ذلك حتى وجدوا الإسلام يقتطع منهم أحلافهم ؛ من روم العرب ، ثم فتحت عليهم مكة وانهزموا جملة ، فرأوا أن الإسلام قوة لا قِبَلَ لهم بها فسلموا له ودخلوا فيه عن إيمان قليل أو منعدم . فلما صاروا فى رحاب الإسلام نفعتهم خبراتهم التجارية والسياسية ، وتنبه إليها الرسول عليه الصلاة والسلام فعهد إليهم فى العمالات وقيادة البعوث ، ووجد فى ذلك وسيلة لإيلاف قلوبهم ، حتى أبو سفيان ــ على لدده وعداوته وقلة إيمانه ــ ولاه عمالة كبيرة استئلافاً له من ناحية وانتفاعاً بخبرته من ناحية أخرى .

وتبينت كفاياتهم مع الزمن ، فثبتت أقدامهم فى الوظائف وشئون الدولة . وعندما تولى أبو بكر استمر على ثقته فيهم ، جرياً على عادته من المحافظة على سنن الرسول من ناحية ، وانتفاعاً بخبرتهم من ناحية أخرى ، ثم غناء بهم عن بنى عبد المطلب وكانوا مُزْوَرِّين عنه . ثم جاء عمر ، رجل الدولة الإسلامية ، ففطن إلى مزايا أفراد هذا البيت فى الإدارة والحرب ، فأولاهم ثقته ومضى معهم على ما كان عليه أبو بكر ، وحرصوا هم منذ أيام أبى بكر على توجيه نظر الدولة نحو الشام ، وكانوا به أعرف ولهم بأهله علاقات قديمة موصولة ، ومن ثم نجد أبا بكر يضع شبابهم فى قيادات بعوثه ، وأحس عمر أنهم قادرون على أداء خدمة كبيرة للدولة الإسلامية فى هذه الناحية ، فأولاهم ثقته وولى الكثيرين منهم قيادات فتوح الشام . وزادت فرصتهم اتساعاً عندما عزل خالد بن الوليد وتوفى أبو عبيدة بن عامر الجراح ، فلم يبق فى الميدان غيرهم .

وبفضل خبرتهم بالشام وملكاتهم الحربية والسياسية تم فتح هذا القطر فى سرعة لم يكن يتوقعها أحد ، وكان واحد منهم ــ يزيد بن أبى سفيان ــ أول حاكم مسلم للشام ، ثم خلفه أخوه الأصغر معاوية ، وبه يصل الاتجاه الشامى للبيت الأموى ذروته ، وفى أعماله تتجلى كل الخصائص السياسية العملية التجارية التى امتاز بها رجال هذا البيت ، فعمل من أول الأمر على أن يصبح الشام قطراً أموياً ، ثم اجتهد فى أن يجعل الدولة الإسلامية كلها دولة أموية ، ولم يكن ذلك ميسوراً إلا بنقلها إلى الشام وجعلها دولة شامية بحرية ، وسنفصل هذا الكلام فى الأسطر التالية .

و ــ الاتجاه البحرى للأمويين :

وعندما يتتبع الإنسان أعمال معاوية منذ أصبح واليا على الشام ، يدهش من اهتمامه بأمر السواحل والثغور البحرية ، فهو الذى فتح قيسارية سنة

١٩ هـ ـــ بعد أن عجز عمرو بن العاص ويزيد بن معاوية عن فتحها[١] ثم فتح عسقلان[٢] بل تجشم عناء الخروج بنفسه وزوجه معه لفتح قبرص ، بعد أن رفض عثمان الإذن له فى فتحها إلا على هذا الشرط[٣] . وإصرار معاوية على فتح هذه الجزيرة وإلحاحه فى ذلك حتى وفق إليه لايخلو من الدلالة على اهتمامه بالبحر وشئونه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين « لم يركبوا بحر الروم قبلها »[٤] تبينا ناحية أخرى من جوانب فضل بنى أمية فى تمكين المسلمين من أمر البحر الأبيض ، فقد كانت هذه الحادثة فاتحة لسيادة المسلمين على مياه ذلك البحر .

والمعنى الذى يستنتجه الإنسان من حملة قبرص هو أن المسلمين أصبح لهم أسطول وصل فى بعض حملات قبرص إلى ٥٠٠ سفينة ، وليس من المعقول أن يكون المسلمون قد بنوا هذه السفن أو أنشئوا « دار صناعة » لعمارتها فى موانى الشام ، فهى لاشك سفن أهل السواحل مما كانوا يستعملونه أو كان الروم يستعملونه . ولاشك أن المسلمين عندما استولوا على موانىء مثل أنطاكية وقيسارية وعسقلان قد استولوا كذلك على ما خلفه الروم فى مرافئها من سفن ، فأجروها بمن كان يجرى بها من أهل تلك البلاد قبلا .

ومن أسف أن المراجع لم تزودنا بشىء من المعلومات فى هذه الناحية ، ولهذا فنحن لا نستطيع القول بنشأة دور الصناعة الإسلامية فى ذلك التاريخ المبكر ، ولم يبق إلا أن نسلم بما ذهب إليه هويد وبيرين من أن المسلمين استعملوا سفن أهل البلاد أو السفن التى خلفها الروم ، أو عهدوا إلى أهل السواحل فى ابتناء سفن لهم ، وعلى أى الأحوال لم تكن أساطيل المسلمين

---

(١) البلاذرى : فتوح (القاهرة ١٩٣٢) ، ص١٤٥ ــ ١٤٧ .
(٢) نفس المصدر ، ص١٤٩ - ١٥٠
(٣) نفس المصدر ، ص ١٥٧ وما بعدها .
(٤) نفس المصدر ، ص ٥٧

الأولى إسلامية إلا من حيث المقاتلة الذين دخلوا فيها للحرب والفتح . وكلمة أسطول نفسها يونانية Stolos ، وكان المسلمون يحاربون فى البحر بنفس أسلوب حربهم فى البر ، أى بالرمى بالسهام والحراب والحجارة فى بعض الأحيان ، فإذا أعياهم الأمر رموا خطاطيف تتشبث بسفن العدو ثم جذبوها إليهم ، حتى إذا تلاصقت السفن تحولت المعركة إلى معركة برية (١) .

يبد أننا ينبغى أن نلاحظ أن معظم استعمال الأسطول الإسلامى ــ أول الأمر ــ كان لنقل الجند لا للاشتباك فى القتال فى عرض البحر ، ودليلنا على ذلك قلة ما لدينا من أخبار الوقائع البحرية بين المسلمين والروم : كانت خطة المسلمين فى السيطرة على البحر تتفق مع طبيعتهم ، وهى الاستيلاء على الشواطىء والموانى ، وإلى تلك الخطة ترجع محاولاتهم العديدة للاستيلاء على القسطنطينية ، لأنها كانت فى نظرهم مركز الأساطيل الرومية التى تعترض سفنهم فى البحر وتهدد شواطئهم ، وكانوا يرون أنهم إذا وضعوا أيديهم عليها كفوا أنفسهم هذا الشر .

وعلى طول أيام معاوية نلاحظ اهتمامه العظيم بالشواطىء والموانىء كأنما كانت تسيره فى نشاطه هذا فكرة معينة ؛ فبينما نجد ثغور الشام البرية ــ أى المفضية إلى آسيا الصغرى ــ من فتوح رجال كأبى عبيدة بن الجراح وميسرة بن مسروق العبسى وعياض بن غنم وغيرهم من الفاتحين ، نجد سواحل الشام كلها ــ عدا أنطاكية ــ من فتوح معاوية . بل يبلغ اهتمامه بأمر البحر مبلغ المخاطرة بغزو جزره ، فقد رأينا كيف فتح قبرص ، ثم أرسل معاوية بن حديج الكندى فقام بأول محاولة إسلامية لفتح صقلية ، وفى هذا المقام يقول البلاذرى : «وكان معاوية بن أبى سفيان يغزى براً وبحراً . فبعث جنادة بن أبى أمية الأزدى إلى رودس ــ وجنادة أحد من روى عنه

---

(١) انظر تفاصيل موقعة ذات الصوارى ٣٤ هـ – ٦٥٥ م : الطبرى ، جـ ٥ ، ص ٦٩ وما يليها .

الحديث ، ولقى أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ، ومات فى سنة ثمانين — ففتحها عنوة ، وكانت غيضة فى البحر ، وأمره معاوية فأنزلها قوماً من المسلمين ، وكان ذلك فى سنة اثنتين وخمسين ... وفتح جنادة بن أبى أمية فى سنة أربع وخمسين أرواد ، وأسكنها معاوية المسلمين ، وكان ممن فتحها مجاهد وتبيع بن امرأة كعب الأحبار ، وبها أقرأ مجاهد تبيعاً القرآن ... وفتح جنادة قريطش ، فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق ، وغزاها حميد ابن معيون الهمدانى فى خلافة الرشيد ، ففتح بعضها ، ثم غزاها فى خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسى المعرف بالإقريطشى ، وافتتح منها حصناً واحداً ونزله ، ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شىء حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وأخرب حصونهم »[1] .

وقد مضى بقية خلفاء بنى أمية على سنن معاوية من الاهتمام بالثغور وحمايتها فنجد هشام بن عبدالملك ينشىء دار صناعة فى صور ، ونجد بنى مروان يحولون هذا البلد إلى ميناء بحرى[2] ، وغير ذلك كثير .

وإلى جانب ذلك نجد بنى أمية — على كثرة مشاغلهم وتوالى ثورات العرب عليهم — ملتفتين إلى البحر وشئونه لايكاد يصرفهم عن ذلك شىء ، فهذه الحملات الكبرى التى قاموا بها على القسطنطينية وقعت فى فترات كانت الثورات عليهم فيها على أشدها فى العراق والجزيرة العربية . وفى نفس هذه الظروف أيضاً أرسلوا الحملات التى فتحت المغرب والأندلس وما وراء ذلك ، ولو قوم غيرهم لرصدوا هذه القوات كلها على تثبيت أمرهم فى تلك البلاد المشرقية التى جاءهم منها البلاء فيما بعد .

وقد كانت خطتهم فيما يتصل بالجزيرة العربية والعراق أن يعهدوا فى أمرهما إلى رجال أشداء يحكمونها بالعسف والقهر ، كأنما كان لايعنيهم من

---

(١) البلاذرى : فتوح ، ص٢٣٧ ــ ٢٣٨ .

(٢) Hitti : Origins of the Islamic State (New - York, 1916) pp 180 - 181.

أمر هذه الولايات إلا أن يسكن كل شيء فيها ويقر كما هو ، أما أن يعنوا بأهلها ويصرفوا إليها جانباً من العناية الحقيقية فلا . وولاتهم على العراق كانوا جبابرة يمتازون بالعنف والقسوة دون أى شيء آخر كالمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، فأما خيرة رجالهم ، أما الولاة الممتازون الذين يفكرون فى إنشاء أو إصلاح فنجدهم فى ولاياتهم الغربية : مصر والمغرب والأندلس . هناك تجد عمرو بن العاص منشيء الفسطاط ، وعقبة ابن نافع منشيء القيروان ، وحسان بن النعمان منشيء تونس ، وعبد الرحمن الغافقى الذى يصور المجاهد المسلم فى أجمل صورة ، والسمح بن مالك الخولانى الذى عاجل شغب عرب الأندلس على أسلوب من الرفق والإنسانية والعدالة لا نجده عند أحد من ولاة المشرق .

بل إننا نجد بنى أمية يعهدون فى حكومات ولاياتهم المغربية إلى رجال من بيتهم مبالغة منهم فى إظهار اهتمامهم بهذه الناحية ، فتولى مصر اثنان من رجال البيت الأموى ، فى حين لم يتول العراق إلا واحد فقط هو مسلمة بن عبدالملك ، بل إننا نجد خلفاء بنى أمية يرسلون أولادهم للاشتراك فى فتوح المغرب ، فنجد عبدالملك بن مروان مثلا يشترك – وهو بعد أمير صغير – فى فتح جولاء (فى إقليم تونس) وهذا كله يدل على عناية خاصة بالجزء الغربى من الدولة – وهو الجزء البحرى منها – واهتمام بشئونه . وليس من قبيل المصادفات البحتة أن يكون الأمويون هم الذين استولوا على شواطىء هذا البحر وما استطاعوا الاستيلاء عليه من جزائره ، بحيث نستطيع القول إن الدولة الإسلامية كانت على أيامهم دولة بحرية متوسطية من حيث الامتداد الجغرافى والاتجاه العام .

ز – الدولة الأموية ، دولة بحرية متوسطية :

فإذا نحن تأملنا الروح العام الذى كان يسير الدولة الإسلامية خلال العصر الأموى ، لاحظنا بوضوح أنه أقرب إلى روح البحر الأبيض الذى

ورثته فيما كان لها من ملك ، وربما استطعنا عند التدقيق أن نجد أوجهاً من الشبه بين أسلوب الحكم وطريقة خلفاء الأمويين فى الإدارة ونظرة رجال الدولة إلى أعمالهم وبين هذه النواحى فى دولة كالدولة الرومانية . ومعاوية نفسه – إذا نظرنا إليه ودرسنا سياساته – تبيّنا أنه كان بعيداً بعداً ظاهراً عن الروح البدوى الحقيقى ، وأقرب مايكون إلى مانعرفه عن أهل السياسة والتدبير من رجال دول البحر الأبيض قبل الإسلام . فهذا الرجل المضرى الأصيل مازال يسعى حتى كسب بنى كلب اليمنيين إلى جانبه ، بل جعلهم فى المرتبة الثانية بعد أفراد البيت السفيانى ، وفضلهم بذلك على مضر أجمعين وهم أهله ، وتخلى بذلك عن أبسط تقاليد البداوة وهو فى الذؤابة منها .

ولم يكن بنو كلب أكثر قبائل عرب الشام عدداً بل كانوا أقربهم إلى الروم ، وكانوا عماد بنى غسان ، وكانوا أحلاف الرومان والبيزنسيين ؛ ولهذا كانوا ذوى ملكات اقتصادية عمرانية جعلتهم من أصحاب الأراضى والضياع والمتاجر فى الشام ، ثم هم بعد ذلك يمنيون من عرب الجنوب ، وعرب الجنوب كانوا ــ على طول التاريخ الإسلامى ــ أهل حضارة ومال وثقافة ، وإن لم يكونوا دائما من أهل الحكم إذ غلبتهم عليه فى معظم النواحى مضر . والتفات معاوية إلى هذه الناحية من أظهر دلائل كياسته وبعد نظره وتفكيره السياسى ، وكان كذلك له أبعد الأثر فى توجيه الدولة الأموية كلها توجيهاً بحرياً حضارياً .

ومن هذا القبيل ميل معاوية إلى الثقفيين من أهل الطائف ، وثقيف من قحطان أيضاً ، وقد أمدت البيت الأموى بطائفة من أقدر رجاله وأنصاره منهم المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وعبيد الله بن زياد ومحمد بن القاسم فاتح السند . نعم إن الخليفة الأموى كان ذا ظاهر بدوى يؤثر العيش فى قصور البادية على المقام فى دمشق ، وينزع إلى ما كان أجداده فى الجاهلية يميلون إليه ، ولكنه كان فى الروح أقرب إلى أباطرة الرومان منه إلى أكاسرة الفرس وعواهل الآسيويين . كان كبار خلفاء الأمويين ينظرون

إلى مصالح الدولة وخيرها نظرة رومانية ، رغم ما كان يبدو من استهتار بعضهم وميلهم إلى المتاع ، ومجالسهم – كما يصورها أبو الفرج الأصفهانى – لم تكن مجرد مجالس أبهة ومظاهر دينية سلطانية كما ستكون مجالس العباسيين ، بل مجالس ملوك معنيين بشئون الدولة وأمور الرعايا كافة .

فإذا تركنا الخلفاء ونظرنا فى أحوال الدولة الإسلامية عامة أيام الأمويين تبينا ملامح « رومانية » أخرى حقيقة بأن تستوقف النظر ، وهى تعيننا على تصوير مانحن بسبيله من دراسة مدى تأثر الدولة الإسلامية خلال العصر الأموى ببيئة البحر الأبيض التى قامت فيها . ومن أظهر هذه الملامح الدور السياسى الذى كانت تقوم به المساجد فى هذا العصر . فقد وصف فلها وزن « المسجد » فى العصر الأموى بأنه كان « فوروم » Forum الإسلام ، وهو وصف يلفت النظر إلى طبيعة المساجد ودورها فى الحياة السياسية للأمة العربية فى العصر الأموى : لم يكن المسجد إذ ذاك مجرد مكان للصلاة بل كان مجمع المسلمين ومنتداهم وملجأ الفقير منهم ومجمعهم السياسى . كان الناس إذا اختلفوا فى أمر من يلى أمرهم تنادوا للاجتماع بالمسجد ، وهناك يتداولون فى الأمر ويقررون رأيهم فيه كما كان الرومان يفعلون فى الفوروم[1] وكان عامل البلد إذا دخلها توجه إلى المسجد وأعلن تعيينه من على المنبر ، وكان هذا الإعلان يعتبر إقراراً من الناس لولايته ، بل كان العمال إذا أرادوا إبلاغ الناس شيئاً دعوا الناس إلى المسجد ليبلغوا إليهم ما يريدون وينصرف الناس بعد ذلك دون صلاة جامعة ، وكان العامل يبدو للناس فى هيئة الحاكم لا الإمام : يحيط به الشرط فى صحن الجامعة والسيوف مشرعة بأيديهم ، والعامل يتكلم وسيفه أو قوسه بيده .

---

(١) Cf. Wustenfeld: Chroniken der Stadt Mekka, II, p. 168. Lammens, Mo'awia, pp. 284-288.

ولم تكن للمساجد محاريب إذ ذاك ، بل منابر فقط يتحدث عليها الحكام وقتما يشاءون ويقرءون الخطب فى مناسبات الصلوات الجامعة ؛ بل إن رجالا كالمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه كانوا يستعملون المسجد مكاناً للحكومة ، فيجلس الواحد منهم على كرسيه فى صدر المسجد ويتحدث إلى الناس ويقضى فى أمورهم كأنه فى مجلس حكم لا فى مسجد .. وكل أولئك يميل بنا إلى الظن أن الأمويين عندما خلفوا أباطرة الرومان فى الشام ، واحتوتهم هذه البيئة المتوسطية بتقاليدها القديمة فى الحكم ، استعملوا المساجد كمجمع للناس وموضع اتصال بهم كما كان الأمر فى الفوروم الرومانى[1] وسيختفى ذلك تماماً فى العصر العباسى ، سيتحول المسجد إلى موضع صلاة فحسب ؛ لأن العباسيين أقاموا ملكهم على فكرة أخرى ، فكرة الكسروية الآسيوية ، وهى لاتعترف بالرعية ولا تسعى إليها ولا تحفل بالاتصال بها .

بل إن عمال الأمويين – إذا تأملنا تصرفاتهم – وجدناهم أشبه بقناصل الرومان : رجال فى خدمة الدولة ينفذون أوامرها فى طاعة ونظام يستوقفان النظر ، رجال لا يفكرون فى الخروج على الدولة والعمل لحسابهم كما سيكون عمال بنى العباس ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فهذا موسى بن نصير معتصم فى الأندلس ثم يستدعيه الخليفة ليحاسبه حساباً عسيراً ، فيسير إليه فى طاعة واستسلام ، ويسأله بعض أصحابه عن السبب فى إلقائه بيد الطاعة ، ولو شق عصاها لما بلغ الخليفة منه شيئاً فيقول : « والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافى طرفاً ، ولكن آثرت الله ورسوله ، ولم نر الخروج على الطاعة والجماعة »[2] وهذا زياد بن أبيه يضع فى العراق نظاماً صارماً هو أقرب مايكون فى دقته وحزمه إلى نظم الرومان ، ويكفى أن نورد هنا قوله لحاجبه : « وليتك حجاتبى وعزلتك عن أربع : هذا المنادى إلى الله فى

---

(١) انظر عن ذلك : **Lammens: Etudes sur le siécle des Umayyades (Beyrouth, 1930), pp. 56 sqq.**

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة ذو زى) جـ ٢ ، ص ٢٠

الصلاة والفلاح ، لا توقفه عنى ولا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لاتحجبه ، فَشَرٌّ ما جاء به ، ولو كان خيراً ماجاء فى تلك الساعة ، ورسول صاحب الثغر ، فإنه إن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام ، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد »[1] وهذا الحجاج بن يوسف ، مضرب المثل فى الحزم والقدرة الإدارية ومراعاة شئون الدولة على أسلوب قناصل الدولة الرومانية لا على أسلوب العواهل الآسيويين . وغير ذلك كثير مما يضيق عنه مجال هذا البحث .

وخلاصة هذا الكلام أن بنى أمية ، إذ نقلوا مركز الدولة الإسلامية من الحجاز إلى الشام ، لم يقتصر الأمر على تغيير موضع المركز ، بل تغيير الاتجاه كله للدولة الإسلامية عامة . نعم إن هذا التحول بدأ من أيام أبى بكر وعمر ؛ لأن فتوح الشام ومصر بدأت وتمت فى أيامهما ، ولكن أثر بنى أمية وأحلافهم فى تيسير هذه الفتوح بالذات واضح لا يحتاج إلى بيان . وقد حرص معاوية منذ استقر له الأمر فى الشام على أن يوجه الدولة كلها وجهة غربية متوسطية ، وجرى على هذا السنن من أتى بعده من خلفاء بنى أمية ، أى أن الدولة الإسلامية ، التى نشأت قارية وظلت فى محيط صحراوى على عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، تحولت بعد انتقالها إلى الشام إلى دولة بحرية ذات طابع متوسطى واتجاه نحو البحر وعناية بشئونه . وعلى أيديهم تمت سيطرة المسلمين على الشواطىء الشرقية والجنوبية والغربية من هذا البحر وعلى جانب كبير من جزائره ، أى أنهم هم الذين كسروا الوحدة التاريخية القديمة لهذا البحر ، وحولوه من بحيرة داخلة فى نطاق العالم اللاتينى اليونانى إلى حد بين ذلك العالم وعالم آخر جديد ، وهو العالم الإسلامى المشرق[2] .

لم تعد حدود العالم الغربى هى السفوح الجنوبية لجبال الأطلس ومشارف الصحراء الليبية وحدود النوبة كما كان الحال قبلا ، وإنما أصبحت حدود هذا

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ط ، بولاق ١٢٩٣) جـ ٢ ، ص ٦

(٢) Oscar Halecki: The Limits and Divisions of European History (London and New York, 1950).

العالم الغربى هى الشواطىء الجنوبية لغالة وشواطىء إيطاليا والأطراف الجنوبية لشبه جزيرة البلقان والجزائر الواقعة فى مدخل بحر إيجة ، وما عدا ذلك من أحواض هذا البحر ومياهه أصبح تحت سلطان المسلمين .

لم تعد السفن الرائحة إلى شواطىء أوروبا والغادية منها تنتقل فى حرية من شواطىء الشام ومصر والمغرب إلى ما شاءت من شواطىء أوروبا صادرة بالمتاجر واردة بالخيرات . وخيم على شواطىء غالة الجنوبية وإيطاليا الشرقية سكون ، إذ لم تعد هناك سفن تذهب أو تجىء ، فيما خلا انتقالات محلية من ميناء إلى ميناء مجاور ؛ وأصبحت سفن المسلمين تخرج من الشام إلى مصر والمغرب والأندلس فى أمن تام ، وهذا ما يعبر عنه بأن البحر الأبيض المتوسط تحول إلى بحيرة إسلامية ، وهو تعبير واسع بعض الشىء من ناحيتين : الأولى أن ذهاب أمر الأمويين وانتقال الأمر إلى العباسيين حال بين المسلمين وبين استكمال السيادة على مياه البحر ، والثانية أن الشعوب الإسلامية نفسها لم تحسن استغلال هذا الوضع ، لأسباب يتصل بعضها بنظرة الدول الإسلامية إلى التجار واستهانتها بأموالهم ، مما زهد الناس فى المتاجرة وجمع المال ، ويرجع بعضها الآخر إلى نفور طبيعى من هذه الأمم للبحر وركوبه ؛ وسنفصل هاتين الناحيتين بقدر ما يسمح المقام فى أطواء هذا الكلام .

وقد عبر جود فروا ديمومبين عن ذلك الذى قلناه تعبيراً دقيقاً فى حديثه عن الانتقال من الأمويين إلى العباسيين ، قال : «ولقد كان الشام الأموى مسنداً ظهره إلى البحر الأبيض ، مواجهاً الخصم الوحيد الخطير الذى قام فى وجهه : الإمبراطورية البيزنطية . وكان يبدو أن مصادر هذا الشام فى ذلك العصر الأموى كانت متوسطية ، ولكن موارده كانت قليلة ، وقد كان لا بد له حتى يستطيع إقامة كيان نفسه واستكمال مظاهر الدولة من الاستعانة بموارد وادى النيل»[1] . وقال فى موضع آخر : «ولقد ظهر التغير فى الاتجاه المادى والمعنوى

(١) Gaudeforiy-Demombynes et P?atanov: Le Monde Musulman et Byzantin Jusqu'aux Croisades (Paris. 1931(, p. 270.

للخلافة بصورة واضحة منذ صارت الخلافة إلى بنى العباس ، وتجلى ذلك بنقل العاصمة من دمشق إلى العراق . لقد كان للخلافة الأموية ميل للشئون المتوسطية ، وأتاح فتح صقلية على بنى الأغلب أمام الإسلام سبلا جديدة إلى الغرب ووضع فى أيدى أهله إمكانات جديدة . أما الخلافة العباسية فكان وجهها إلى المشرق ، وإذا صح ما يقال من أن البرامكة فكروا فى فتح القسطنطينية وسيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، فإن هذا كان اتجاها سياسياً لم يقدر له من العمر أكثر مما قدر للبرامكة أنفسهم . وابتداء من القرن التاسع الميلادى ، أصبح موقف الخلافة سلبياً دفاعياً فيما يختص بالإمبراطورية البيزنطية . من ذلك الحين كانت الخلافة العباسية آسيوية خالصة ، وسيتجه نشاطها التجارى نحو الخليج الفارسى وبحار الهند ، وسيكون اتساع أراضيها فى نواحى آسيا الوسطى . ولكن ، حتى فى هذا الاتجاه لم توفق الإمبراطورية الإسلامية إلى الاحتفاظ بتوازنها أو بتجانسها»[1] .

ح ــ الدولة العباسية وطابعها الآسيوى :

وهذا الذى أشار إليه المستشرق الفرنسى الكبير موجزاً ، ينطوى على حقيقة كبرى من حقائق التطور العام لتاريخ الدولة الإسلامية . فإن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يكن مجرد انتقال السلطان من بيت إلى بيت أو انتقال العاصمة من بلد إلى بلد ، بل كان فى الواقع نقلا للدولة الإسلامية كلها من عالم إلى عالم : من عالم البحر الأبيض إلى عالم آسيوى يختلف عنه من كل ناحية . كان وجه الدولة إلى الغرب ، وكانت همومها همومها بحرية غربية ، وكان بناؤها يعلو ويتكامل فى محيط هيلينى رومانى ، وأهلها يقتطعون كل يوم قطعة من أرض الإغريق والرومان القدامى ويضيفونها إلى أرضهم بما فيها ومن فيها ، وكان الهدف الأخير للدولة هو الحلول محل القسطنطينية وروما فى آن واحد ، أى محل الإمبراطورية والمسيحية ، والسيادة على البحر الأبيض كله .

---

(١) G. Demombynes, op. cit. pp. 271-272.

وقد كان هذا الاتجاه بعيد الأثر فى كيان الدولة كلها على عهد الأمويين . ثم تغير هذا كله بعد انتقال الدولة إلى العراق ، من العالم البيزنطى إلى العالم الفارسى ، فكان لهذا الانتقال أبعد الأثر على مصائر الدولة الإسلامية الشرقية : لم يعد الخليفة رجل دولة يجتهد فى إثبات كفايته بجهده على طريقة أباطرة الرومان والبيزنطيين ، بل أصبح خليفة كسروياً يلى الملك بحق إلهى على طريق عواهل فارس ، وظهر نظام الوزارة بمعناه الفارسى القديم ، وأصبح هدف الدولة الأخير هو المال والجباية ، وأهملت الدولة أملاكها الغربية فانفصل عنها الأندلس والمغرب الأقصى ، وتنازلت عن المغرب الأوسط وإفريقية (تونس) لبنى الأغلب لقاء قدر معين من المال ، وعهدت فى أمور مصر والشام إلى ولاة هم أقرب ما يكونون إلى مرازبة الفرس القدماء ، مهمتهم الوحيدة هى الالتزام بأداء المال المستحق على البلدين ، وأهملت شواطىء الشام واقترب البيزنطيون من حدوده الشمالية شيئاً فشيئاً ، وانتهى الأمر باستيلائهم على أنطاكية وطرابلس ، وعاد جانب كبير من تجارة الحوض الشرقى للبحر الأبيض إلى أيدى البيزنطيين شيئاً فشيئاً ، وهكذا : تصفية حقيقية للجناح الغربى من الدولة الإسلامية .

وإذا كان المسلمون قد فتحوا صقلية فى العصر العباسى فإن التى قامت بذلك كانت دولة إسلامية غربية هى دولة بنى الأغلب ، وإذا كان المسلمون قد فتحوا جزيرة كريت فى هذا العصر أيضاً ، فإن الذين قاموا بذلك كانوا جماعة من الأندلسيين كما سنرى . وقد عدلوا باستيلائهم على هذه الجزيرة كفة التوازن بين الإسلام والنصرانية فى شرق البحر الأبيض المتوسط بعض الشىء ، أى أن الخلافة الإسلامية الشرقية نفضت يدها من شئون البحر الأبيض وخرجت من ميدانه جملة وأخذت آسيا تبتلعها رويداً رويداً .

وليس أدل على هذه الناحية الأخيرة من أن الدولة الإسلامية نظرت إلى الشواطىء على أنها حدود ونهايات ينبغى حمايتها ، لا أبواب وثغور يمكن الاعتماد عليها فى سيادة مياه البحر والقفز منها إلى ما وراء البحر من بلدان . لقد كان العصر الأموى عصر تعريف الدولة الإسلامية بعالم البحر الأبيض

وتمليكها إياه وتحصين هذه الشواطىء لصالحها ووضع نواة **الأسطول** الإسلامى ، وكان ينبغى أن تنتقل الشعوب الإسلامية بعد ذلك إلى الطور الثانى ، طور السيطرة الفعلية على مياه ذلك البحر والاستفادة منه كطريق للمواصلات والتجارة كما فعلت الدولة الرومانية ، ولكن التغير المفاجىء للأحوال فى العالم الإسلامى وانتقال الأمر إلى العباسيين واتجاه الدولة نحو آسيا ، كل هذا أوقف ذلك التطور وحال بين المسلمين وبين الاستفادة الكاملة من تلك السيطرة التى صارت لها على شواطىء هذا البحر الغربية والجنوبية والشرقية ومعظم جزائره .

ط – أدوات السيادة البحرية ، تحصين الشواطىء وإنشاء الأساطيل :

والآن وقد ألممنا بالدوافع التى دفعت بالدولة الإسلامية إلى شواطىء البحر الأبيض ، وتتبعنا انتقالها إلى الشام واستقرارها فى بيئة متوسطية وأثر ذلك على طبيعتها ، ندرس العدة التى اعتمدت عليها الدولة فى حماية شواطئها من الغارات وسيادة أحواض هذا البحر .

وضعت الدولة الإسلامية يدها على جزء كبير من شواطىء البحر الأبيض خلال عصر الراشدين : شواطىء الشام ومصر حتى برقة ، ولم يكن للدولة الإسلامية إذ ذاك خبرة بشئون البحر ولا أدوات للانتفاع به ، فاعتبرته – كما قلنا – حدوداً ينبغى تحصينها من غارات الأعداء ، وكان الخطر إذ ذاك من ناحية البيزنطيين عظيما ، إذ كانت لهم الأساطيل القادرة على مهاجمة شواطىء المسلمين ولديهم الرجال ذوو الخبرة بالملاحة البحرية ، ولهذا « كان الساحل بالنسبة للبيزنطيين حداً تسهل مهاجمته ، فى حين أنه كان بالنسبة للمسلمين خط دفاع بالغ التعرض للخطر » ، وقد « أتاح خلو يد المسلمين – بطبيعة الحال – من أسطول عربى ميزة كبرى لعدوهم عليهم .. وبينما اتجه البيزنطيون

إلى الانتفاع بما عندهم من المزايا ، اجتهد المسلمون فى تلافى نواحى الضعف من جبهتهم وسد ثغراتها »[1] .

وكان أول مافعلته الدولة الإسلامية لإدراك هذه الغاية ، هو تحصين السواحل وتعمير محارسها ومسالحها وشدها بالرجال ، حتى تكون على الأهبة لرد كل عدوان يأتى من ناحية الروم ؛ وتلك كانت سياسة الدولة الإسلامية أثناء خلافتى عمر وعثمان ، وقد تولى تنفيذ أعظم جانب منها معاوية بن أبى سفيان فى الشام وعمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبى سرح فى مصر . فنقرأ فى النصوص كيف أن المسلمين اهتموا برم حصون بلاد الساحل ، كاللاذقية والبلدة وطرابلس وصور وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت وشدها بالحاميات القائمة . ويعبر عن ذلك البلاذرى بقوله : « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها من قد يحتاج لها إليه من المسلمين ، فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد . فلما استخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ، ففعل »[2] . ويزيد ذلك بياناً فى موضع آخر بقوله : « وحدثنى أبو حفص عن سعيد بن عبد العزيز ، قال : أدركت الناس وهم يتحدثون أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل ، فكتب له فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها . ولم يأذن له فى غزو البحر ، وأن معاوية لم يزل بعثمان حتى أذن له فى الغزو بحراً ، وأمره أن يعد فى السواحل – إذا غزا أو غزى – جيوشاً سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ويبنى المساجد ويكبر ما

---

(١) M.A. Cheire: La Lutte entre Arabes et Byzantins (Alexandrie, 1947) p. 85.

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٨ . وانظر الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب بقلم فيليب حتى : Ph. Hitti: Origns of the Ialamic State (Princeton, 1916) p.202.

كان ابتنى منها قبل خلافته . قال الوضين : ثم إن الناس – بعد – انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية »[1] .

واتبع المسلمون نفس الخطة فى مصر فى هذا الدور الأول من سياستهم البحرية ، فنجدهم يعنون برم حصون الإسكندرية و«السواحل» ، والمراد بالسواحل هنا المدن البحرية مثل تنيس ودمياط والبرلس ورشيد وثغور بنطابلس (المدائن الخمس) وهى المعروفة اليوم بإقليم برقة[2] .

وفى خلافتى عمر وعثمان ، وبعد أن أصبح معاوية بن أبى سفيان عاملا على الشام كله ، نجد سياسة المسلمين نحو البحر الأبيض تخطو خطوة إلى الأمام . نعم إن عمر رفض أن يسمح لمعاوية بالغزو بحراً[3] ، ولكنه عهد إليه فى تحصين السواحل وجعلها على الأهبة لرد أى عادية على عجل ، فنجد المسلمين يضعون نظاماً دقيقاً لحراسة السواحل ، فنقلوا إليها أقواماً من القادرين على الحرب ، وأقاموهم على السواحل وفى كبار مدنها فى معسكرات منظمة معدة ، وقسموا هذه القوات إلى عرافات ، وأقاموا «المناظر» على السواحل ، واقتبسوا من البيزنطيين فكرة إعطاء الإشارات بإيقاد النيران ، فإذا تراءت الإشارات أسرع كل جندى إلى عرافته وسار الجميع إلى موضع الخطر . ونجد هذا النظام فى أكمل صورة فى مصر ، حيث كانت إشارات «المواقيد» تتوالى من الساحل من موقد لموقد حتى تبلغ الفسطاط فيخف المدد على عجل ، وقد بلغ عدد حاميات السواحل فى الشام ست عشرة وفى مصر عشرا[4] .

---

(١) البلاذرى : فتوح ، ص ١٣٤ و Hitti, op. cit. p. 196 وقد عنيت بمراجعة ترجمة الأستاذ حتى لما فيها من الفوائد والإيضاحات .

(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (ط. توري) ص ١٣٠ و١٧٥ و١٩٠ . والكندى : القضاة والولاة (ط. روفن حبست) ص ٢١ ــ ٢٢ .

(٣) البلاذرى : فتوح ، ص ١٧٥ . المقريزى : خطط (ط. بولاق) ص ٢٢٦ ــ ٢٧١ .

(٤) ابن عبدالحكم : فتوح ، ص ١٧٥ .

فإذا تم تحصين السواحل واطمأن المسلمون إلى أنهم قادرون على إحباط كل محاولة يقوم بها الروم فى البحر ويعين المسلمين على ما يريدون غزوه من الجزر وغيرها من شواطىء الروم . وكان الهدف الأول من نشأة الأسطول الإسلامى سلمياً ، أى نقل الغلال من مصر إلى الحجاز . وقد اقترن هذا بحفر القناة التى تسمى فى النصوص «بخليج أمير المؤمنين» ، وهى فتاة تخرج من النيل شمالى الفسطاط وتصل إلى خليج السويس عند القلزم [1]، وعقب ذلك اهتم العرب بإنشاء أسطول نهرى يوصل القمح إلى القلزم ومنها إلى الحجاز ، وأنشئت لذلك دار صناعة عند جزيرة الروضة بمصر ، ولهذا سميت « بجزيرة الصناعة » . وقد أظهر المصريون براعة فائقة فى بناء السفن ، فتكون على أيديهم أسطول نهرى ، بل تمكن المصريون من بناء سفن قوية تستطيع الاشتراك فى المعارك البحرية .

ى ــ موقعة ذات الصوارى البحرية ومكانها من تاريخ البحر الأبيض :

ويبدو أن هذه الهمة التى أبداها المسلمون فى بناء السفن ، هى التى حفزت الإمبراطور البيزنطى قنسطانز إلى الخروج فى أسطول بيزنطى ضخم للقضاء على ما كان لدى المسلمين إذ ذاك من أدوات للحرب فى البحر ، وكانت نتيجة ذلك واقعة ذات الصوارى ٣٤ – ٦٥٥ التى تعتبر حادثاً فاصلاً فى تاريخ الملاحة فى البحر الأبيض ؛ ذلك لأن فنسطانز كان يرمى إلى تحطيم قوى المسلمين البحرية فى مهدها ، ولو وفق فى ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقى على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين [2] .

ولا شك أن السفن التى اعتد بها معاوية فى الشام – والتى أخافت الإمبراطور البيزنطى وجعلته يتوقع خروج حملة بحرية إسلامية ضخمة لمهاجمة

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١٧٥ .

(٢) إبراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ص ٩٢ وما بعدها .

القسطنطينية بحراً – كانت من بناء أهل الشام ، أى أن نواة الأسطول الإسلامى كانت شامية ، ولكن القوة الحاسمة أتت من مصر ؛ فبينما سار معاوية بسفن الشام من قيصرية الشام ، خرجت عمارة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن سعد بن أبى سرح . وقد ألقى الأسطول الإسلامى مراسيه عند فونيكة[1] على ساحل آسيا الصغرى ، وانتظر مقدم الأسطول البيزنطى .

وقد ذكر الطبرى فى كلامه عن هذه الواقعة عبارة تدل على تردد المسلمين فى ملاقاة البيزنطيين فى معركة بحرية ، وعلى غرور هؤلاء وثقتهم من أنفسهم على ظهر الماء . قال رواية عن أحد من اشتركوا فى المعركة : « فالتقينا فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا ، فأرسينا ساعة وأرسوا قريباً منا ، وسكنت الريح عنا ، فقلنا : « الأمن بيننا وبينكم » ، قالوا : « ذلك لكم ولنا منكم » . ثم قلنا : « إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر » . قال : فتنخروا نخرة واحدة وقالوا : « الماء ! »[2] . ثم يلى ذلك وصف اللقاء كما سبق بيانه[3] .

ويفهم من وصف المعركة أن كثيراً من قبط مصر اشتركوا فى هذه المعركة وهم على دينهم ، فقد اختلف عبدالله بن سعد مع محمد بن أبى

---

(١) جاء فى كتاب « مصر فى فجر الإسلام » للدكتورة سيدة الكاشف (القاهرة ١٩٤٧) تعليق على موقع فونيكة Phoenicus هذا نصه :

« انظر Justus Perthes: Atlas Antiquis. Tab. 18 D 3. ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوبى آسيا الصغرى بجوار ثغر Phoenix راجع :

M. Canard: Expéditions des Arabes Contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende (Journal Asiatique, Janvier-Mars 1926)

وانظر ما كتبه الدكتور زكى محمد حسن فى هذا الصدد فى عدد مايو سنة ١٩٤٤ من مجلة المقتطف ص ٤٨٢ – ٤٨٣ .

انظر الكتاب المشار إليه ، ص ٩٤ هامش ١ .

(٢) الطبرى : تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٦٩ – ٧٠ .

(٣) انظر عن هذا الوصف : خطط ، جـ ١ ، ص ١٦٩ .

حذيفة ومحمد بن أبى بكر ــ وكانا فى المعركة ــ فقال عبدالله بن سعد : «لا تركبا معنا ، فركبا فى مركب ما فيه من المسلمين أحد» ، ووردت هذه العبارة فى موضع آخر هكذا : «فركب فى مركب وحده ما معه إلا القبط»[1] . وقد كانت هذه المعركة حامية الوطيس حاسمة النتيجة ، إذ لم يعد البيزنطيون يجرءون بعدها على منازلة المسلمين فى مواقع بحرية ، واكتفوا بمهاجمة سواحل المسلمين ، مما حفز هؤلاء على مضاعفة الهمة فى بناء السفن وإنشاء دور صناعتها ، «فيذكر البلاذرى أنه لما كانت سنة ٤٩ هاجم الروم السواحل الإسلامية ، وكانت دور الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبى سفيان بإنشاء دار للصناعة فى عكا »[2] .

ولكن مصر ظلت مركز صناعة السفن الإسلامية ، وظل قبطها مشهوداً لهم بالتفوق فى مسائل إنشاء الثغور البحرية والحرب البحرية ، حتى كان يستعان بهم فى كل ناحية من نواحى المملكة الإسلامية ، وقد أظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم إشقاو ، والتى ترجع إلى عصر الوليد بن عبدالملك ، أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة وفى القلزم والإسكندرية ؛ فبعض تلك الأوراق يكشف لنا أن الوالى قرة بن شريك كان كثيراً ما يطلب من صاحب كورة إشقوة أن يرسل إليه عمالا وصناعاً وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى إعداد الأسطول المصرى الحربى ، كما تشهد تلك الأوراق بأن الوالى كان ينفق مقدماً على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى ، كما كان يفرض على الكور قدراً من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد الأسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين للعمل فى

---

(١) الطبرى نفس المصدر جـ ٥ ، ص ٧٠ ــ ٧١ .

(٢) سيدة الكاشف : نفس المرجع ، ص ٩٠ .

أسطول المغرب أو أسطول المشرق والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية[1] .

وقد استمر ذلك طوال العصر العباسى أيضاً وطوال عصرى الفاطميين والأيوبيين ، ولم تنصرف الدول الإسلامية المصرية عن الاهتمام بشئون البحر إلا فى عصر المماليك[2] ، وكان هذا من سوء حظ العالم الإسلامى ؛ لأن هذه الفترة كانت فترة النهوض البحرى الأوروبى وقيام الجمهوريات الإيطالية التى انتزعت السيادة على مياه البحر الأبيض من أيدى المسلمين . قال ابن خلدون : «وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج»[3] .

هذا عن نصيب مصر والشام فى الجهد البحرى للمجموعة الإسلامية وهو جهد لم تتهيأ له الظروف ليبلغ مداه ؛ لأن الدولة كلها اتجهت وجهة أخرى وسقط البحر الأبيض من حسابها ، وخرجت الولايتان البحريتان الكبيرتان مصر والشام من اهتمامها الحقيقى ، بل وقفت من الشام موقف العداء ، مما أضاع على الدولة الإسلامية فرص الاستفادة منه كمركز لسيادة البحر الأبيض ، ومن أهله كأداة لاستكمال فتح شواطىء هذا البحر وجزره وسيادة أحواضه ، وقد كان لهذا أخطر الآثار فى مجرى التاريخ الإسلامى بعد

---

(١) سيدة الكاشف : نفس المصدر ، ص٩١ــ٩٢ والمراجع المعطاة فى الهوامش .

(٢) انظر : المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص١١٠ــ١١١ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص٦٢ . انظر أيضاً : تاريخ ابن خلدون ، جـ ٦ ، ص٩٨ــ٩٩ .

ذلك ؛ لأن البحر الأبيض على مدى التاريخ مركز القوة العالمية ومحور سياستها ، من ساده ملك زمام القوة فى زمانه .

وكانت أولى نتائج هذا التحول الكبير فى اتجاه الدولة الإسلامية ، أن تنفس البيزنطيون الصعداء وعادوا يحاولون استعادة مركزهم فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، ولم تلبث سفنهم أن ملكت زمامه وهددت شواطىء المسلمين تهديداً خطيراً .

وقد أورد الأستاذ أدولف جروهمان نص وثيقة بردية يرجع تاريخها إلى سنة ٢٤١هـ ـ ٨٥٥م تعطينا فكرة عن تهديد البيزنطيين لسواحل مصر حتى ذلك التاريخ ، وشدة اهتمام الولاة بدفعهم عن السواحل ومقدار ما كان المصريون يعانونه من المتاعب للقيام بالخدمة فى الأسطول وحماية شواطىء الدولة الإسلامية ، وهذا نص الوثيقة :

«يابا حفص لو رأيت (ما) الناس فيه عندنا اليوم من التخليط والسخرة : يوخذ (النو) اتية وغير النواتية وكلمن قدروا عليه أخذوه يدخلوا كل يوم جماعة من كل موضع أسأل (الله) الفرج من عند رحمته والأمير أيده الله قد خرج إلى المحلة ودمياط وهو أول يوم من مسرى وأخرج معه جماعة من الجند وذلك أنه ورد عليه كتاب من أمير المؤمنين أعزه الله يشدد عليه أن يريح عندى رسم كتاب لا أقدر أن أكتب به إليك وإذا وردت الخريطة لعله الأمير أبقاه (الله) خرج إلخ»[1] .

وهى وثيقة ذات أهمية كبرى ؛ لأنها تدل على مقدار تعرض شواطىء المسلمين لغازات البيزنطيين ومدى خوف المسلمين منهم وعجزهم عن ملاقاتهم ، على هذا النحو الرائع الذى رأيناه خلال العصر الأموى والذى تصوره لنا وقعة ذات الصوارى بصورة أوضح من أن تحتاج إلى بيان .

---

(١) Adolf Grohmann: From the World of Arabic Papyri. Cairo, 1925. p. 122.

وقد توقف تراجع المسلمين فى ذلك الحوض الشرقى حينا من الزمن عندما استولى نفر من مسلمى الأندلس على كريت كما سنفصله فى موضعه ، ولكن الدولة العباسية لم تهتم بأمر كريت ومن فيها من المسلمين ، فلم تلبث أن ضاعت من أيدى المسلمين وعاد البيزنطيون يهددون سواحل الإسلام تهديداً خطراً متصلا واستعادوا بعض ما فقدوه . وقد بلغ هذا التقدم البيزنطى ذروته عندما استولوا على أنطاكية وطرابلس وتعرضت سواحل المسلمين فى الشام ومصر لخطر شديد . نعم إن دول الطولونيين والإخشيديين والفاطميين كانت لها عناية بالشام وبعض المرافىء ، ولكن هدفها من تلك العناية كان برياً لا بحرياً ، كانت تريد أرض الشام لا سواحل الشام ، بل مالت الدولة الفاطمية إلى مهادنة البيزنطيين ومصالحتهم والاعتراف الضمنى بسيادتهم على الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

وقد ظهر هذا بوضوح ابتداء من القرن العاشر الميلادى ، وهو قرن النهوض البحرى لإيطاليا وغربى أوروبا . وعندما بدأت سفن البنادقة تجوس خلال أمواه الحوض الشرقى للبحر الأبيض وجدت المجال أمامها متسعاً فسيحاً : المسلمون منصرفون عن البحر والبيزنطيون فى ضعف ، فاستغلوا الوضع أحسن استغلال لصالحهم ، انتزعوا سيادة الحوض الشرقى من البيزنطيين وأخذوا من أيديهم جزءاً كبيراً من تجارة الشام وهبطت العناية بالبحرية فى مصر إلى درجة لم نعد معها نسمع لها ذكراً فى تاريخ هذا البحر ، اللهم إلا فيما يتصل بالنشاط التجارى المحدود بين موانى مصر والشام وبعض نواحى المغرب .

ولو أن الدولة العباسية اهتمت بشئون الملاحة فى البحار الآسيوية ، لقلنا إنها أفادت من تجارب الأمويين البحرية نحو قرن من الزمان ، ولكنهم لم يوجهوا أى عناية لشئون البحار . فبينما أفاد الأمويون من أهل الشام ومصر فى تكوين قوة بحرية تؤمن سيادة الإسلام على جزء كبير من البحر الأبيض ، نجد العباسيين لا يلقون إلى ذلك بالا ؛ وبينما اهتم الأمويون بالاستيلاء على ما

أمكنهم من شواطىء البحر الأبيض ، نجد العباسيين لا يفيدون من الملكات البحرية لشعوب الخليج الفارسى ولا يحفلون بإنشاء أسطول .

وقد ظلت البصرة ــ أكبر موانيهم ــ مينا خطراً لا تأمن السفن الدخول فيه ، ولم تحاول الدولة إقامة منارة أو ناظور يعينان السفن على الدخول إليها أو الخروج منها ، وظل عماد الملاحين على مهارة أهل عبدان ، وهى فرضة البصرة على الخليج الفارسى ، وقد ظلت السفن تتحطم عند « الخشبات » فى مدخل عبدان دون أن تحاول الدولة إنشاء مرفأ صالح للسفن التى كانت تحمل خيرات آسيا إلى العراق . وظلت سفن المسلمين فى البحر الأبيض أضخم وأعظم من سفنهم فى المحيط الهندى ، واحتفظ أهل الشام بتفوقهم فى أمور البحار ، حتى فاقت أساطيلهم أساطيل الفاطميين وحالت بين البيزنطيين وبين استعادة مركزهم فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

وبخروج الخلافة الشرقية من ميدان البحر الأبيض ، انتقل واجب الدفاع عن مركز المسلمين فيه إلى الدول المغربية والأندلسية ، وقام بنو الأغلب فالفاطميون فبنو زيرى والأمويون الأندلسيون بحماية الشواطىء الإسلامية فى حوض البحر الأوسط والغربى ، وهم الذين حولوا هذين الحوضين إلى بحيرتين إسلاميتين ، بل احتلوا كريت وعدلوا جبهة الإسلام فى الحوض الشرقى ، واحتلوا جنوبى إيطاليا واشتبكوا مع الجنويين والبيزيين فى صراع بحرى عنيف ، امتد حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كما سنرى . وسنعرض الآن لما قام به كل من المغرب والأندلس فى هذا الميدان على وجه الإجمال .

ك ــ المغرب الإسلامى والبحر الأبيض :

رأينا كيف كان أهل المغرب يساهمون بنصيب كبير فى النشاط التجارى فى البحر الأبيض قبل الإسلام ، وكيف كانت موانى الشمال الإفريقى مثل قرطاجنة وبونة وسلداى Salade وسبتة Septem وطنجة Tingis محطات هامة

فى تجارة هذا البحر ، ترسو بها السفن بالمتاجر وتقلع عنها إلى موانى غالة وإيطاليا وإسبانيا أو تلم بها أثناء رحلاتها لتمتار فيها ، وهذه الحركة التجارية البحرية النشيطة إنما هى مظهر لما امتاز به أهل سواحل المغرب من ملكات بحرية تجارية تظهر وتتجلى كلما أتيحت الفرص ، وهى مرتبطة أشد الارتباط بالحالة العامة داخل بلاد المغرب ، فإذا ساد السلام وجدنا أهل المغرب فى البحر ، وإذا اجتاحت البلاد موجات الفوضى أو الحرب القبلية أو الغزو الأجنبى سكنت الحركة فى موانى المغرب وانكمش المغاربة عن البحر حتى يعود الهدوء . وربما كان الأصل فى هذا النشاط المغربى هو نزول الفينيقيين شواطئه وإنشاؤهم المحطات التجارية البحرية على طول هذه الشواطىء ؛ وأهم هذه المحطات كانت قرطاجنة التى تحولت بعد ذلك إلى مستعمرة فينيقية فدولة قائمة بذاتها كان لها فى تاريخ البحر الأبيض فصل طويل .

ويختلف المغرب عن غيره مما دخل فى حوزة الإسلام من بلاد البحر الأبيض بأن النشاط البحرى يكون جزءاً لا يتجزأ من حياته وكيانه الاقتصادى والاجتماعى تبعاً لذلك ؛ لأن أخصب أراضى المغرب وأوفقها للسكنى وأوفرها ماء هى مناطق الشريط الساحلى الذى يتصل من تونس إلى المحيط الأطلسى ، ومن ودن هذا الشريط يقوم «سياج الجبال المتهيلة» ــ كما يقول ابن خلدون ــ وهى جبال درن أو الأطلس ، وتليها نواحى الصحراء تتخللها واحات وسهول ضيقة لا تتسع إلا فى أقصى الغرب فيما يعرف الآن بمراكش .

وسكان هذا الشريط الساحلى العامر لا يستغنون عن البحر وتجارته ؛ ولهذا كان أهله من أنشط الأمم البحرية أيام الرومان والبيزنطيين ؛ وقد حاول الفاتحون المسلمون لأول دخولهم المغرب أن يقطعوا صلته بالبحر ، فتعمدوا نقل مركز الحياة فيه من «قرطاجنة» إلى بلدة داخلية اختطوها هى «القيروان» ، ثم أكدوا ذلك الاتجاه بتخريب قرطاجنة ؛ ولكن طبيعة البلاد

غلبت عليهم فأنشئوا عقب تخريبها «ميناء تونس» ، وكان الذى خرب الأولى وبنى الثانية واحداً هو حسان بن النعمان .

وعلى الرغم من قيام « تونس » وتعمير المسلمين لناحية « العدوة » المغربية التى تعرف الآن « بالريف » واهتمامهم بسبتة وطنجة بسبب فتحهم الأندلس ، فإن حالة الحرب التى استمرت قائمة بين الإسلام والنصرانية أوقفت النشاط البحرى المغربى ، ودام ذلك طالما كان سلطان المشرق على المغرب قوياً مباشراً ، فلما تمكن المغرب من التخلص من قبضة المشرق بعض الشيء بقيام دولة الأغالبة على رأس المائة الميلادية التاسعة ، أخذ المغرب يرتد إلى البحر الأبيض وعاد أهله إلى نشاطهم السابق فى حوضة الأوسط .

ذلك أن المغرب لم يظل خاضعاً للمشرق إلى ما لانهاية - كمصر مثلا - بل دأب أهله من أول الأمر على التخلص من سيادة المشارقة ، ودخلوا معهم فى صراع طويل . وقد مر الصراع بين المشارقة وأهل المغرب فى أدوار ثلاثة : الأول من بدء الفتح الإسلامى إلى أوائل عهد الأغالبة ، وفيه كانت سيادة المغرب مداولة بين المشارقة والمغاربة ، لهؤلاء يوم ولأولئك يوم ، وقد فشل الكثير من العرب فى السيطرة على المغرب وسيادة أهله خلال هذه الفترة ، كما نرى فى محاولات آل عبدالرحمن بن حبيب وبنى هزارمزد ، وقد كان القلق الذى ساد أمور المغرب ، واجتهاد قبائله البربرية فى التخلص من سيادة العرب ، هو الدافع الأساسى الذى جعل هارون الرشيد يترك إفريقية لمحمد بن الأغلب لقاء جزية سنوية مقررة . وقد خفت يد المشرق على إفريقية بذلك ، وإن سادتها إيرة عربية ذات اتجاه شرقى ، ولكن طبيعة البلاد وأهلها غلبت ، فانفتح باب البحر الأبيض أمام أهل إفريقية من جديد ، واشتد النشاط على سواحل إفريقية ذلك الاشتداد الذى بلغ ذروته فى فتح صقلية ومغازاة جنوبى إيطاليا .

وإذ نظرنا إلى الأمور من هذه الناحية ، تبين لنا أن فتح صقلية لم يكن مصادفة أو مجرد حركة فتح استمراراً لسياسة الفتوح الإسلامية العامة ، بل

محاولة من المغرب لاستعادة مركزه فى البحر الأربيض فى نطاق إسلامى :
لقد اكتسب أهل المغرب من الإسلام شعوراً بأنفسهم ونزوعاً نحو السيادة ، وهذا النزوع هو الذى دفعهم إلى محاولة التخلص من سيطرة العرب عليهم أولا ثم إلى سيادة حوض البحر الأبيض الأوسط والغربى بعد ذلك . وبينما كان المغرب قبل الإسلام تابعاً لما يقابله من شواطىء البحر الأبيض الشمالية نراه ينزع إلى سيادتها بعد الإسلام . وقد تم له ذلك على خطوتين : الأولى تمت فى عصر الأغالبة بفتح صقلية والشواطىء الجنوبية لإيطاليا ، مما جعل الحوض الأوسط للبحر الأبيض والبحر التيرانى أيضاً تحت رحمة المغاربة المسلمين – وقد كانت العلاقات بين المغرب وغربى أوروبا إذ ذاك علاقات حرب وعداوة مستمرتين ، واستمر ذلك أيضاً طوال الفترة الفاطمية من تاريخ إفريقية . والثانية تبدأ عندما استقل المغرب بأمر نفسه وتخلص من سيادة العرب والمشرق نهائياً فى عهد بنى زيرى وما تلاه ، وهنا لاتصبح الحرب هى العلاقة الوحيدة بين أهل المغرب وأوروبا النصرانية ، بل تدخلها علاقات التجارة وتبادل المنافع كذلك ، ويرتبط أهل المغرب مع أهل أوروبا النصرانية بالمعاهدات وتجرى بينهم السفارات ، وتصبح سيادة الحوضين الأوسط والغربى للبحر الأبيض المتوسط مداولة بين المسلمين المغاربة وأمم النصرانية . ولكن المتتبع لتطور الموقف فى هذين الحوضين يجد أن أمر المسلمين فيهما كان فى ضعف مع الزمن ، وانتهى الأمر بانتقال السيادة عليهما إلى أيدى أمم غربى أوروبا وخاصة بعد ضياع الأندلس . والحادث الحاسم الذى أضعف قوى المغرب البحرية هى الغزوة الهلالية التى شلت نشاط المغرب كله وأشاعت فى أنحائه الفوضى والخراب ، فلم ينهض من جديد إلا على أيدى المرابطين والموحدين .

وقد تتبع « ميكيلى أمارى » والبارون « ماس لاترى » تطور الموقف فى وسط البحر الأبيض وغربه بين الإسلام والنصرانية ، فأظهرا كيف أن سيادة

المسلمين عليهما كانت تامة حتى نهاية القرن الثامن الميلادى ، ثم بدأت شعوب غرب أوروبا تنازعهم هذه السيادة ابتداء من عهد بيين الكبير منشىء البيت الكارولنجى ، بل بلغ الأمر أن نزلت قوة نصرانية يقودها الكونت بونيفا تيودى لوكا على سواحل تونس سنة ٢١٣ – ٨٢٨ . وفى نهاية ذلك القرن نجد السفن الأوربية أقوى من سفن المسلمين وأحسن بناء[١] وقد توقف تقدم النصارى فترة بسبب نهوض المغرب فى عهد الفاطميين فبنيت المهدية سنة ٣٠٨ هـ – ٩٢٠ م وأصبحت مركزاً للعمليات الحربية الإسلامية ضد أوروبا الغربية ، ودور هذا الثغر فى تاريخ البحرية الإسلامية وتاريخ البحر الأبيض كله عظيم ، وهو جدير بدراسة على حدة .

ولا تحدثنا مراجعنا العربية عن النشاط البحرى العظيم الذى أبداه أهل المغرب ابتداء من أواخر القرن الثامن الميلادى ؛ لأن معظم هذا النشاط كان نشاطاً غير رسمى ، أى أن أهل سواحل المغرب كانوا يقومون به لحساب أنفسهم ، ولكن حوليات النواحى التى وجه المغاربة إليها نشاطهم تعطينا فكرة واضحة عنه ، وهى تصف هذا النشاط بأنه كان نشاط قرصان لا هدف له غير السلب والنهب ، ولكننا عندما ندرس القليل من النصوص العربية التى بين أيدينا نتبين أن الدافع الأكبر لهذا النشاط كان الحرب الدينية ومغازاة بلاد النصارى ؛ لأن حوض البحر الأبيض أصبح منذ دخول الإسلام دار حرب ، والجهاد الدينى كما نعلم لا يتنافى مع اكتساح المغانم وأسر الناس وتخريب المواقع ، والحكم على هذه الأعمال يتوقف على وجهة النظر : إسلامية أو نصرانية . ومما هو جدير بالذكر أن العرف الإسلامى كان يستنكر الإسراف فى النهب والسلب ، ومصداق ذلك هذا الخبر الذى يسوقه النويرى عن أول غزوة قام بها المسلمون من المغرب على سردانية ، قال : «ولما فتح موسى بلاد الأندلس سير طائفة من عسكره إلى هذه

---

(١) Michele Amari: Diplomi Arabi.

الجزيرة ، وهى فى بحر الروم كثيرة الفواكه ، فدخلوها فى سنة اثنتين وتسعين (٧١١ ــ ٧١٢م) ، فعمد النصارى إلى ما يملكونه من آنية الذهب والفضة فألقوا الجميع فى الماء ، وجعلوا أموالهم فى سقف البيعة الكبرى التى لهم تحت السقف الأول ، وغنم المسلمون منها ما لا يحد ولا يوصف ، وكثر الغلول . واتفق أن رجلا من المسلمين اغتسل فى الماء ، فعلق فى رجله شىء فأخرجه ، فإذا هو صحفة من فضة ، فأخرج المسلمون جميع ما فيه . ودخل رجل من المسلمين إلى تلك الكنيسة ، فنظر إلى حمام ، فرماه بسهم فأخطأه ، ووقع فى السقف ، فانكسر لوح ، ونزل شىء من الدنانير ، فأخذوا الجميع ، وزادوا فى الغلول ، فكان بعضم يذبح الهر ويرمى ما فى جوفه ويملؤه دنانير ، ويخيط عليها ويلقيه فى الطريق ، فإذا خرج أخذه . وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهباً ، فلما ركبوا فى البحر سمعوا قائلا يقول : اللهم غرقهم ! فغرقوا عن آخرهم»[1] .

وهذه الرواية تدل على أن نشاط مسلمى المغرب فى البحر بدأ منذ زمن مبكر وتدل كذلك على أن غزوات المسلمين البحرية لم تكن كسباً كلها .

وسنذكر هنا أهم ما قام به أهل المغرب من أعمال حربية فى حوض البحر الأبيض حتى فتح صقلية ، وينبغى أن ننبه إلى أننا نعتمد هنا على مراجع أوروبية لاتينية لا يفرق معظمها بين ما كان يقوم به أهل المغرب وما كان يقوم به أهل الأندلس من أعمال فى هذا المضمار . والحقيقة أنه من العسير جداً أن نفصل ما قام به كل من الجانبين عن الآخر ، فقد كان الجانبان على نشاط عظيم فى البحر على طول العصور الإسلامية ، حتى فتح صقلية اشتركت فيه جماعات أندلسية . بيد أننا نستطيع أن نقول إن الجانب الأكبر من النشاط البحرى الإسلامى فى حوض البحر الأبيض الأوسط كان مغربياً ، أما فى الحوض الغربى فكان معظم النشاط فيه أندلسياً .

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٢ (ط. جسيار ريميرو ، مدريد ١٩١٩) ص٢٢ . وانظر الترجمة الإسبانية لهذا الجزء ، ص٣٣ .

فعقب فتح المسلمين للمغرب ، وقبل نهاية القرن الهجرى الثانى (الثامن الميلادى) ، نجد مسلمى المغرب يهاجمون شواطىء إيطاليا الجنوبية والغربية ، ثم وجه المسلمون جهودهم نحو صقلية ، وقاموا من إفريقية (تونس) بغارات متوالية عليها ابتداء من سنة ٣٢ ــ ٦٥٢م . إذ يذكر ثيوفانيس أن المسلمين هاجموا صقلية فى ذلك التاريخ ، ثم سكن النشاط البحرى حيناً ليتجدد من أوائل القرن الثامن الميلادى ، فنجد المسلمين يهاجمون صقليةفى سنوات ١٠٢ ــ ٧٢٠ و١٠٩ ــ ٧٢٧ و١١٠ ــ ٧٢٨ و١١٢ ــ ٧٣٠ و١١٤ ــ ٧٣٢ و١٣٥ ــ ٧٥٢ و١٣٦ ــ ٧٥٣ ولكنها كانت كلها سرايا سريعة لا ترمى إلى فتح الجزيرة .

وكان من الممكن أن يستمر الأمر على ذلك المنوال ، لو لم تجر الأحوال فى دولة الأغالبة على نحو جعل زيادة الله بن الأغلب يرى فى فتح صقلية مخلصاً له من متاعب داخلية كثيرة ، فقد كان اضطهد «جند» العرب لكثرة شغبهم وحاول القضاء عليهم ، وكون لنفسه جيشاً من «السودان» قوامه «ألف أسود» ليستغنى بهم عن جند العرب والبربر . ولكن الأمر لم يتحسن لأن الخصومة اشتدت بين السودان والعرب والبربر وتعرضت الدولة كلها للضياع ، ففكر زيادة الله فى ميدان واسع يلقى فيه بهؤلاء وهؤلاء ليشغلهم به عن نفسه . وتطلع ببصره ناحية صقلية ، وكانت الدولة البيزنطية فى شغل بنفسها عن أمور صقلية ، واستبد بالأمر فيها قائد بيزنطى ــ هو يوفيميوس Euphemius الذى تسميه المراجع العربية «فيمه» ــ فحاولت الدولة إخضاعة فاستغاث بزيادة الله ، فعجل بتجهيز حملة لفتح صقلية ووضع على رأسها قاضياً مسناً هو أسد بن الفرات .

وخرجت الحملة الإسلامية سنة ٨١٢ ــ ٨٢٧ من سوسة ، ونزلت الجزيرة وحاصرت «سرقوسة» ولم تستطع الاستيلاء عليها أول الأمر ؛ لأن أسطولا بيزنطياً خف لعونها ، وكادت الحملة تفشل ، لولا مدد ساقه الله من الأندلس ، كان مكوناً من نفر من مجاهدة البحر فيها أسرعوا بتخليص

المسلمين الذين كانوا قد تحصنوا فى جبل مينيو Minio ، فتمكن المسلمون من الاستيلاء على «بلرم» فى ٨٣١/٢١٦ بعد حصار عام ، وحاول البيزنطيون المقاومة ، ولكن النابليين انضموا إلى المسلمين ، فسقطت مسينا فى أيديهم سنة ٢٢٩ ــ ٨٤٣ . ثم تجرد المسلمون لحصار آخر المعاقل البيزنطية الكبرى وهى سرقوسة ، فسقطت سنة ٢٦٥ ــ ٨٧٨ بعد حصار طويل ، وكانت قصريانه Castrojiovanni قد سقطت قبل ذلك سنة ٨٥٩/٢٤٥ ، ولم تسقط طبرمين Tauromenium إلا سنة ٢٩٦ ــ ٩٠٨ ، أى أن المسلمين أنفقوا ١٣٨ سنة فى فتح هذه الجزيرة ولم تخلص لهم بعد ذلك إلا ثلاثاً وسبعين .

ويعتبر فتح صقلية من المعالم الهامة فى التاريخ البحرى الإسلامى ، فإن سيطرتهم عليها جعلت مفتاح حوض البحر الأوسط الأبيض والغربى فى أيديهم ، وإذا كان المسلمون لم يحسنوا الاستفادة من صقلية كبلد عظيم وقع فى أيديهم وكان فى إمكانهم تحويله إلى بلد إسلامى خالص ، فلم يلبث أن ضاع من أيديهم ، إلا أنهم أفادوا منه كمفتاح بحرى عظيم القيمة ، وعرفوا كيف يهددون منه إيطاليا كلها ، ويسودون البحر التيرانى كله ، ويفتحون أجزاء كثيرة من إيطاليا . ومن أسف أن دول الأغالبة والفاطميين وبنى زيرى لم تضع سياسة بحرية رسمية تمكنهم من الإفادة من صقلية مركزها ، ولكن مرابطة المسلمين ومجاهدة البحر قاموا بجانب مما قصرت الدل المغربية الرسمية فى أدائه ، فأظهروا نشاطاً عظيماً فى الغزو فى البحر ، وتمكنوا من موالاة الغزوات على جنوبى إيطاليا وغربيها ؛ ولو أن الدول الإسلامية المغربية أيدتهم فى أعمالهم ونظمتهم ، لكان للمسلمين فى حوض البحر الأبيض تاريخ آخر .

وقد أشرنا إلى أنه من العسير التمييز بين ما قام به أهل المغرب وأهل الأندلس من أعمال فى البحر فى ذلك الحين ؛ لأن مصادرنا هنا لاتينية

أوروبية ، وهى لا تميز بين المسلمين بعضهم وبعض ، بل تضعهم كلهم فى طائفة واحدة ، فتسميهم تارة «المغاربة» Mauri أو «قرصان» أو ساراسينى Sarraceni ، ولكننا نستطيع أن نقول إن أهل المغرب هم أصحاب كل ما ينسب للمسلمين من أعمال فى إيطاليا ، وأهل الأندلس هم أصحاب ما سوى ذلك .

وقبل أن نستطرد إلى ذكر أعمال مسلمى المغرب فى حوض البحر الأبيض يحسن أن نلقى نظرة على السياسة البحرية لكل من دول المغرب التى تولت الأمر فيه خلال الفترة التى ندرسها ، وهى دول الأغالبة والفاطميين وبنى زيرى بفرعيها : أى بنو زيرى أصحاب ما يعرف الآن بتونس ، وبنو حماد أصحاب القلعة المنسوبة إليهم والتى سادوا منها المغرب الأوسط .

فأما بنو الأغلب فكانت الأمور مضطربة فى أيديهم إلى درجة لم تمكنهم من رسم سياسة بحرية ، وإنما كان جل اهتمامهم محاربة الخارجين عليهم من البربر والعرب ، ولو أن الأمور استقرت فى أيديهم فى المغرب لكان لهم فى البحر دور كبير ، فقد كان للكثير من أمرائهم نزوع إلى الكفاح البحرى واهتمام بأمور السواحل وانصراف إلى الجهاد الدينى . ولكنهم كانوا بيتاً قليل الملكات ورث بلداً يضطرب كل ما فيه ، بيد أنهم تمكنوا على أى حال من إقرار السلام فى إفريقية ــ وهى ما يعرف الآن بـ «تونس» ــ لفترات طويلة نوعاً ما ، وخلال هذه السنوات انتعش أهل إفريقية وتفتحت نفوسهم للجهاد ، فكان هذا النشاط البحرى الذى ذكرناه ، وهو جهاد معظمه غير رسمى ، بل كان الذين قاموا به من خصوم الدولة ، فعلى طول الشواطىء التونسية قامت جماعات «المرابطين» ، وهم جماعات من الأتقياء كانوا لا يرضون عن الأغالبة ، فانصرفوا عنهم واعتزلوا على شاطىء البحر فى مواضع مثل «المنستير» و«سوسة» و«تونس» ، وهناك ابتنوا حصوناً كانوا يسمونها «قصوراً» يقيمون فيها رهباناً مجاهدين ، يحرسون المسلمين ويغزون

النصارى . ويفهم من النصوص أن أعدادهم كانت كثيرة وأن جهدهم فى الحرب كان عظيما . والغالب أن هؤلاء هم الذين قاموا بمعظم النشاط البحرى المغربى مستقلين عن الدولة الأغلبية .

ثم كانت الأحداث التى ذكرناها والتى جرت إلى فتح صقلية . والمتأمل لأحداث هذا الفتح يتبين أن معظم أعمال المسلمين فيه كانت جهاداً حراً لم تتدخل الدولة فيه إلا بقدر قليل . ولقد ألقى زيادة الله فى ميدان صقلية بأعداد كبيرة من اليمنيين والخراسانيين والبربر ، وانضمت إليهم هناك جماعات من الأندلسيين ، وكانت هذه الجماعات متنافرة متباغضة ، فوقع النزاع بين بعضها والبعض لأول سنوات الفتح ، فتلكأ وتعطل . وكلما تقدم الفتح زاد الخلاف بين هذه الطوائف ، وخاصة بين المغاربة جملة والأندلسيين جملة . وقد بلغ الخلاف بينها مبلغاً خطراً على أوائل القرن العاشر الميلادى ، مما اضطر إبراهيم بن الأغلب إلى الذهاب إلى الجزيرة بنفسه لتهدئة الأحوال . وقد كان لهذا العمل أثر طيب إذ اجتمعت قلوب مسلمى صقلية ، وتمكنوا من الاستيلاء على آخر معقل بيزنطى فى الجزيرة وهو طبرمين سنة ٩٠٨ .

غير أن النزاع لم يلبث أن تجدد ، وتقسمت البلاد بين الطوائف تقسما محزناً مما عجل بأيام الإسلام فى صقلية . وقد زار الجزيرة بعد ذلك بسنوات الجغرافى ابن حوقل النصيبى ووصف ما بين أهلها من النزاع والنفور والتباغض وصفاً يدعو إلى العجب ، ويدل على أن الخلاف بين المسلمين لم يصل فى بلد من البلاد إلى مثل ما وصل إليه الأمر فى صقلية ، حتى إن الابن كان ينافر أباه ويرفض الصلاة معه فى مسجد واحد ، فكان لكل قادر منهم « مسجد جامع وإمام » .

ولكن النشاط البحرى لمسلمى صقلية كان مستمراً رغم ذلك ، ولكنه كان نشاطاً موزعاً مفرقاً : كل جماعة فى موضع على الساحل تعمل لحسابها

مستقلة عن الأخريات ، فلا غرابة والحالة هذه أن نجد أعمالهم مجرد غارات سريعة قليلة الأثر يغنم المغيرون خلالها ما يصل إلى أيديهم فى الموضع الذى ينزلون فيه من شواطىء إيطاليا ثم يعودون .

وأما الفاطميون فلهم فى تاريخ البحر الأبيض فصل طويل ، سواء خلال الفترة المغربية أو المصرية من تاريخهم ، غير أن نشاطهم خلال الفترة الأولى كان موزعاً بين محاربة النصارى ومحاربة الأمويين الأندلسيين ، تارة يشتبكون مع هؤلاء وتارة مع أولئك بغير تفريق ، ويتعقبون سفن الأندلسيين وسفن النصارى بنفس الهمة ، ولكنهم رغم ذلك كانوا أعظم أثراً فى البحر ممن سبقهم وممن تلاهم من بنى زيرى . فقد عرفوا كيف يكونون أسطولا قوياً كما نجحوا فى تكوين جيش كبير ، وقد بلغ نشاطهم البحرى ذروته على أيام عبيد الله المهدى ، ففى عهده استقرت أقدام المسلمين فى سردانية ، وهو الذى تنبه إلى أن سردانية أصلح القواعد لمهاجمة الغرب النصرانى ، فأنشأ فيها مراكز قوية ونقل إليها قوات كبيرة من المسلمين . ثم جمع قوات المسلمين فيها وقام منها بأخطر هجوم إسلامى عرفته جنوا سنة ٣٣٢ ــ ٣٣٣هـ . وربما كان سر اهتمامه بسردانية هو خوفه من الأندلسيين ، ورغبته فى حماية شواطئه وشواطىء صقلية منهم .

وفى عهد عبيد الله المهدى أنشئت «المهدية» فى تونس ، وهى التى ستصبح أقوى مركز بحرى إسلامى للعمليات البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد قام هذا البلد بعبء الكفاح ضد النصرانية بقية العصر الفاطمى وعصر بنى زيرى ، ومنها خرجت أقوى الحملات الإسلامية على جنوبى إيطاليا .

وعندما انتقل الفاطميون إلى مصر انتقل إليها نشاطهم البحرى أيضاً ، بيد أن نشاطهم البحرى خلال الفترة المصرية من تاريخهم لم يكن يهدف إلى مغازاة البيزنطيين بل إلى حماية شواطئهم الطويلة منهم ، فقد سيطر

الفاطميون على شواطىء الإسلام من أنطاكية إلى الإسكندرية ، وكان عليهم أن يقوموا بحماية ذلك كله ، فشغلوا به عن المغازاة فيما وراء البحر من بلاد النصرانية .

وقد تمكن الفاطميون من سيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض سيادة تامة أمنت أمواهه ، فجرت السفن بالمتاجر ما بين شواطىء الشام ومصر ونشطت الموانى والثغور نشاطاً عظيماً لم تبلغه فى فترة ماضية ، فاتسعت أنطاكية وطرابلس وعسقلان وتنيس اتساعاً كبيراً وعظمت تجارتها ، حتى لقد طلب الإمبراطور البيزنطى من الخليفة الفاطمى أن يتنازل له عن تنيس فى مقابل مال عريض ، وتنيس كانت تقوم على جزيرة فى الماء ، فحسب البيزنطيون أن الخليفة الفاطمى لا يعدها من أرض مصر ، ويتنازل عنها ، وكانت أعظم مركز للنسيج فى العالم الإسلامى إذ ذاك ، وكانت تقدم للبلاط البيزنطى أحسن أنواع الحرير الأرجوانى ، وكانت منظمة نظاماً صناعياً تجارياً عظيماً . وتقدمت ـــ نتيجة لهذا النشاط البحرى ـــ صناعة السفن الإسلامية ، حتى كانت سفنهم فى شرق البحر الأبيض أحسن وأضخم من سفنهم فى بحار الهند وآسيا .

وكان الفاطميون بطبعهم أصحاب عناية بالاقتصاد وشئونه ، وكانوا ذوى حرص على طرف الصناعة ، حتى لقد ضمت خزائنهم منها ما أحصى المقريزى بعضه فى صفحات كثيرة من خططه ، وربما كان هذا هو السر فى ارتفاع أمر التجارة والتجار فى عصرهم . وكان الفاطميون فى سياستهم العامة أميل إلى مصالحة البيزنطيين فى موانى الإسلام وبعض مدنه ، ونجد تجار المسلمين يدخلون أراضى الدولة البيزنطية ويتاجرون معها فى حرية تامة . أى أن الفترة الفاطمية تعتبر فترة الأوج فى النشاط البحرى التجارى الإسلامى فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

ومن الطبيعى والحالة هذه أن نجد النشاط البحرى الحربى الفاطمى قليلا نسبياً ، يكاد يقتصر على الدفاع عن مياه دولتهم ولا يتعداه إلى الغزو

والفتح ، وليس أدل على ذلك من قلة اهتمامهم بقاعدة كبرى مثل قبرص . فهذه الجزيرة الكبيرة التى تعتبر مفتاح الحوض الشرقى للبحر الأبيض كانت على أيامهم فى حالة هى وسط بين الخضوع للمسلمين والبيزنطيين : لقد بدأ هؤلاء الأخيرون غزوها سنة ٢٨ ــ ٦٤٩ أيام معاوية بن أبى سفيان وكانت لهم فيها وقائع وحروب اشترك فيها نفر من الصحابة ونسائهم ، وأهمهن أم حرام التى استشهدت هناك ولا زال قبرها إلى الآن على مقربة من لارانقا Laranca أكبر المزارات الإسلامية فى الجزيرة .

وقد ظلت الجزيرة خلال العصر الأموى قسمة بين المسلمين والروم ، فكانوا يتقاسمون خراجها بناء على اتفاق تم بين عبدالملك بن مروان والإمبراطور جستنيان الثانى سنة ٦٩ ــ ٦٨٨ . ويقال إن هارون الرشيد أراد أن يحسم موقف الإسلام فى هذه الجزيرة ، ولكنه لم يفعل شيئا . ومن الثابت على أى حال أن معظم أهل الجزيرة كانوا نصارى إلى عهده .

وعندما نهضت الدولة البيزنطية على أيام المقدونيين تجرد هؤلاء لاستخلاص الجزيرة ، فغزوها فيما بين سنتى ٢٦١ ــ ٨٧٤ و٢٦٨ ــ ٨٧٦ ثم استعادها للدولة البيزنطية نقفور فوكاس فيما بين سنتى ٣٥٢/٩٦٣ و٣٥٩/٩٦٩ ، وقد خرجت من أيدى المسلمين من ذلك الحين .

ولم يحاول الفاطميون استعادتها ، فظلت فى يد البيزنطيين حتى انتزعها منهم ريتشارد قلب الأسد أثناء الحروب الصليبية ، ووهبها لفرسان الداوية ، ثم انتقلت إلى يد جى دى لوزينان ، وظلت خاضعة للفرنجة ٤٠٠ سنة حتى فتحها بيبرس البندقدارى سنة ٦٧٩ ــ ١٢٧٠ .

وقد يكون الفاطميون أعظم دول الإسلام اهتماماً بشئون البحر بعد الأمويين ، وقد يكون ذلك أثراً من الآثار المغربية فى تكوين دولتهم ، فإن البحر ــ كما قلنا ــ يكون جزءاً لا يتجزأ من كيان المغرب الاقتصادى

والاجتماعى والسياسى أيضاً ، وذلك لأسباب جغرافية ألمعنا إليها فيما مر . وليس إلى الشك سبيل فى أن البحرية الفاطمية وصلت إلى درجة كبيرة من القوة والانتظام قبل انتقال الفاطميين إلى مصر ، يدل على ذلك هذا النشاط البحرى العظيم الذى تحدثنا عنه على أيام عبيد الله المهدى . فلما انتقل الفاطميون إلى مصر انتقل معهم هذا الاهتمام بالبحر وشئونه ، وزاد أمره عندما استقرت الدولة فى مصر ، ووجدت فى البلاد تقاليد بحرية قائمة ودور صناعة صالحة . وإن كان الإهمال قد كاد يعفى عليها . وللقلقشندى فقرة ذات قيمة عظيمة فى هذا الباب ، لا بأس بأن نوردها بنصها لأنها تغنينا عن كثير من الكلام . قال تحت عنوان «فى اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور ، واعتنائهم بأمر الجهاد وسيرهم فى رعاياهم واستمالة قلوب مخالفيهم» .

«أما اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور واعتناؤهم بأمر الجهاد ، فكان ذلك من أهم أمورهم ، وأجل ما وقع الاعتناء به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام حين كانت بأيديهم قبل أن يغلبهم عليها الفرنج ، وكانت جريدة قوادهم تزيد على خمسة آلاف مقاتل مدونة ، وجوامكهم فى كل شهر من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر ديناراً إلى عشرة إلى ثمانية إلى دينارين ، وعلى الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جأشاً ! وكان أسطولهم يومئذ يزيد على خمسة وسبعين شينياً وعشر مسطحات وعشر حمالات ، وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع . فإذا أراد الخليفة تجهيزها للغزو ، جلس للنفقة بنفسه حتى يكملها ، ثم يخرج مع الوزير إلى ساحل النيل بالمقسم ، فيجلس فى منظرة كانت بجامع باب البحر والوزير معه للموادعة (= التوديع) ، ويأتى القواد بالمراكب التى تحت المنظرة ، وهى مزينة بالأسلحة والمنجنيقات واللعب منصوبة فى بعضها ، فتسير بالمجاديف ذهاباً وعوداً كما يفعل حالة القتال ، ثم يحضر إلى بين يدى الخليفة المقدم والريس فيوصيهما ويدعو لهم

بالسلامة ، وتنحدر المراكب إلى دمياط وتخرج إلى البحر الملح . فيكون لها فى بلاد العدو الصيت والسمعة . فإذا غنموا مركباً اصطفى الخليفة لنفسه السبى الذى فيه من رجال أو نساء أو أطفال ، وكذلك السلاح ، وما عدا ذلك يكون للغانمين لا يساهمون فيه . وكان لهم أيضاً أسطول بعيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها ، خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب ، فيحميهم الأسطول منهم ، وكان عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ، ثم صارت إلى ثلاثة ، وكان والى قوص هو المتولى لأمر هذا الأسطول ، وربما تولاه أمير من الباب ، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه» .

وقد عقد الدكتور عبدالمنعم ماجد فصلا طيباً عن البحرية المصرية فى العهد الفاطمى فى كتابه عن «نظم الفاطميين» . وسنورد هنا فقرات منه ؛ لأنه يصور لنا البحرية المصرية ــ والإسلامية عامة ــ فى أوجها فى شرق البحر الأبيض قبل الحروب الصليبية ، وهو يتمم ما قلناه عن الدور الذى قامت به مصر فى تاريخ البحرية الإسلامية عامة .

أشار ماجد إلى ضعف الأسطول المصرى على أيام الطولونيين والإخشيديين ، ثم ذكر كيف أن مركز الفاطميين فى شرق البحر الأبيض فرض عليهم الاهتمام بالأسطول والبحرية ، وذكر ــ رواية عن القلقشندى ــ كيف أن «وحدات الأسطول الفاطمى كانت مرتبة بجميع الشواطىء الساحلية ، مثل الإسكندرية ودمياط وعسقلان وعكا وصور وغيرها من مرافىء سوريا . ولكن هذه السيادة البحرية على سواحل سوريا لم تبق لهم طول عهدهم ، فقد غلبهم عليها الصليبيون فى القرن الأخير من حكمهم» . ثم أشار إلى دور الصناعة فى مصر الفاطمية وقال : «وقد كانت أهم مراكز إنشاء المراكب المسماة «دور الصناعات» فى عصر الفاطمى توجد فى العاصمة ، فكانت المقس التى أنشأها الخليفة المعز فى شمال القاهرة

على ساحل النيل ، تقوم ببناء ستمائة قطعة ، كما كانت جزيرة الروضة التى عرفت فى العهد الفاطمى باسم «جزيرة مصر» تقوم أيضاً بإنشاء المراكب البحرية .

«وقد وجدت أماكن أخرى متعددة فى مصر وفى الإمبراطورية لبناء المراكب ، فيروى المقريزى أن الفاطميين واصلوا إنشاء المراكب بنشاط بمدينة الإسكندرية ودمياط» .

«وكانت الدولة الفاطمية تبذل جهدها للحصول على الخشب الضرورى لإنشاء المراكب سواء من مصر أو من الخارج . ففى مصر كانت تقيم الحراس لحماية أشجار لا تحصى من السنط ، وفى البهنساوية والأشمونية والأسيوطية والأخميمية والقوصية ، وهى ذات أعواد قوية تصلح فى عمل المراكب . ولم تتردد مصر أيضاً فى الحصول على الخشب اللازم لأسطولها من البندقية ، مما دعا بيزنطة إلى الاحتجاج عند الدوج (Doge) أو حاكم البندقية ، الذى اضطر أمام هذا الاحتجاج إلى وقف إرسال الخشب إلى مصر» .

ثم تكلم عن الأسطول ومراكبه فقال : «فيأتى فى طليعة مراكب الفاطميين فى مصر أسطول تجارى يملكه الخليفة ، فى غاية النشاط» . فقد عرف خلفاء الفاطميين الانتفاع بمزايا الموقع الجغرافى لمصر ، فى مفترق سير المراكب الآتية من آسيا والشرق الأقصى ، فأنشئوا أسطولا تجارياً كبيراً ، بقصد التجارة العالمية وبخاصة مع الهند . ويروى ناصرى خسرو فى رحلته بعض الفقرات الطريفة عن أسطول الخليفة : فقد كان من بين ألف مركب راسية فى تنيس ، عدا ما هو ملك للتجار ، عدد كبير ملكاً للخليفة . ولا ريب أن مراكب الخليفة التجارية كانت تبنى فى دور صناعة الدولة ، وإن لم تصلنا أية معلومات دقيقة عن طريقة صنعها أو تجهيزها .

«أما عن الأسطول الحربى ، فلدينا أسماء بعض وحداته ، مثل : «الشوانى» ، جمع «شينى» أو «شونة» ، وهى من أهم قطع الأسطول الفاطمى وأطولها ، وتجذف بمائة وثلاثة وأربعين مجذافاً ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع وللهجوم ، وتحتوى على أهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء الحلو . و«الحراريق» جمع «حراقة» وهى من أكبر المراكب أيضاً ، وإن كانت أقل من الشونة حجماً ، وتستعمل على الأخص فى حرق سفن العدو ، ولذلك كانت مزدوة بالنفط الذى يرمى بالمنجنيقات أو بالسهام أو فى القوارير . و«البطس» جمع «بطسة» وهى من السفن الحربية العظيمة ، التى تشتمل على عدة طبقات وعلى قلوع كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعاً ، وهى تستخدم فى حمل الأزواد والذخيرة وعلى الأخص الرجال ، فيروى المقريزى أن إحدى «البطس» كانت تحمل ألفاً وخمسمائة شخص . والمراكب المسماة «أغربة» جمع «غراب» وهى من المراكب الحربية شديدة البأس ، ولعلها سميت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها التى كانت على شكل رأس غراب . و«المسطحات» جمع «مسطحة» أو «مسطح» ، وهى نوع من كبار سفن الحرب المسوحة . و«الطرائد» جمع «طريدة» ، وكانت تستخدم فى نقل الخيل . و«الشلنديات» جمع «شلندى» ، وكانت من كبار المراكب المسطحة ، وتستخدم فى نقل البضائع . و«القراقير» جمع «قرقورة» ، وكانت من السفن العظيمة المعدة لنقل المؤن للأسطول . و « الحمالات » جمع « حمالة » ، وكانت تحمل الذخيرة للأسطول » .

« وبالإضافة إلى هذه القطع الحربية الرئيسية يشتمل الأسطول على قطع أخرى مثل : « الطرادات » جمع « طراد » أو « طرادة » وهى سفن حربية صغيرة على هيئة البرميل ، بدون سطح ، وتستعمل فى مطاردة العدو لسرعتها و« الشبابيك » جمع « شبك » أو « شباك » وهى من سفن الأسطول الصغيرة ، ذات ثلاثة قلاع ، وقد تسير بالمجاذيف . و « الفلايك »

جمع « فلوكة » ، وهى مراكب صغيرة تتحرك بالمجاذيف . وكانت « القوارب » جمع « قارب » و« الزوارق » جمع « زورق » ضمن قطع الأسطول أيضاً ، وهى مراكب من غير شراع ، وتستعمل – فى العادة – لنقل الأشخاص » .

« وكانت الدولة تملك أسطولا نهرياً يسير فى النيل مثل المراكب التى يقال لها « عشاريات » جمع « عشارى » ، وكانت تسمى فى العصر المملوكى « حراقة » وتستخدم فى جمع غلات الدولة وغيرها . ويقول ابن الطوير بوجود عشرين مركباً من نفس النوع تسمى « دماميس » جمع « ديماس » أو « ديتماس » برسم الخليفة وبعض الموظفين الكبار فى الدولة . وكانت « الشذوات » جمع « شذات » و« السميريات » جمع « سميرية » تستعمل فى نقل المؤن والعساكر فى الأنهار . أما المراكب المسماة « علابيات » و« حمائم » و« وسنابك » فكانت معروفة من قبل فى عهد ابن طولون وتسير فى النيل » .

« ويشير القلقشندى ، عند كلامه عن الأسطول الفاطمى ، إلى وجود أسطول صغير قليل العدد يتكون من ثلاثة أو خمسة مراكب فى مرفأ عيذاب ، كان يقوم بأعمال الحراسة فى البحر الأحمر وتنظيفه من القرصان » .

« ويصف لنا ابن جبير ، الذى زار مصر فى عهد صلاح الدين ، كيفية صنع المراكب التى كانت تمخر البحر الأحمر وتسمى « جلاب » جمع « جلبة » فهى كانت تبنى بطريقة عجيبة جداً ، لا يستعمل فيها مسمار البتة ، وإنما خشبها يخيط بحبال مصنوعة من قشر الجوز المفتول ، وتتخللها عيدان النخل ، ثم تسقى المراكب بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن سمك القرش ـــ وهو أحسنها لتليين الأعواد ، فقد كانت مياه البحر الأحمر تأكل المسامير وتجعلها غير صالحة ، وكانت هذه المراكب لخفتها تحمل على ظهور الجمال ، وتسير بالمجاذيف أو بالشراع» .

وقد نقلنا هذه الفقرة الطويلة لأنها تعطينا فكرة واضحة جداً عن هيئة الأسطول الفاطمى المصرى وسفنه ، وتصور لنا البحرية المصرية فى ذروتها قبل الصليبيات .

وجدير بالملاحظة أن أسلوب الحرب البحرية الذى جرى عليه المسلمون فى العصر الفاطمى ، كان هو نفس أسلوبهم الذى تكلمنا عنه عند كلامنا عن موقعة ذات الصوارى ، وهو نفس أسلوب الحرب البرية ، وفى ذلك يقول ماجد : «وكانت المراكب تزود بأنواع السلاح البحرى المختلفة ، ولكننا نجهل التفاصيل الدقيقة عن الأسلحة البحرية ، وربما كانت تشبه أسلحة الجيش فيروى القلقشندى أن أسلحة رجال الأسطول الرئيسية كانت عبارة عن القسى التى تشد بواسطة اليد أو الرجل ، أما عن أسلحة المراكب الكبرى فإنها كانت تزود على الأخص «بالمنجنيقات» و«العرادات» لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة ، و«بالكلاليب» ، وفائدتها أنها تلقى على مراكب العدو فيوقفونه ثم يشدونه ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون من فيه . وكان الأسطول الفاطمى — مثل أساطيل الدول فى ذلك العصر — يستخدم النفط أو النار الإغريقية ، التى تكلمنا عنها فيما سبق ، فكان يستعمل نوعاً من النفط يسير على الماء دون أن ينطفىء ، فكان هذا النفط يحرق مراكب العدو . وعلى العكس ، كانت المراكب الفاطمية تحتمى من نار العدو وقذائفه بتغطية هيكلها بدرع من الخارج يسمى «لبوس» ، عليه غطاء يسمى «لبود» من جلود البقر الطرية أو من البسط ، أما الرجال فيحتمون من الحريق بدهن أجسامهم بالبلسان . وليس من شك فى أن القطع البحرية الفاطمية كانت مزودة أيضاً بكل ما هو ضرورى للحرب فى البر ، فكانت المراكب تحمل الأسلحة التى تستخدم فى نقب أسوار الموانى المعادية ، مثل «الأبراج» و«الدبابات» و«السلاليم» وحتى «الحبال» .

«ومن الطريف أن نذكر وجود قفص فيه حمام ، ضمن معدات أسطول صقلية ، فكان هذا الحمام ــ على ما يظهر ــ يستعمل فى إبقاء الاتصال بين مختلف وحدات الأسطول ، أو بينه وبين القيادة العامة فى البر . أضف إلى ذلك أن مركب «رئيس الأسطول» كان يزود بفانوس خاص لتهتدى به المراكب الأخرى فيقلعون بإقلاعه ويرسون برسوه» .

بيد أن ذلك كله ضعف شيئاً فشيئاً مع ضعف الدولة الفاطمية العام ، وخاصة خلال النصف الثانى لعهد المستنصر الطويل ، إذ تخلخلت نظم الدولة كلها وقلت اهتماماتها وعجزت عن موالاة البحر بالاهتمام اللازم . وكانت النتيجة أن طلائع الحروب الصليبية عندما بدأت لم تجد فى حوض البحر الأبيض الشرقى من قوى المسلمين البحرية ما يقف أمامها ، وكان لهذا أثره البعيد فى تاريخ هذه الحروب . وليس إلى الشك سبيل فى أن البحرية المصرية لو كانت على هذا الحال من القوة أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لكان لتاريخ الحروب الصليبية كله اتجاه آخر .

ونعود بعد ذلك إلى عرض بقية أوجه النشاط البحرى لأهل المغرب الإسلامى ، ولا يتسع المقام لذكر التفاصيل ؛ ولهذا فسنكتفى بذكر أهم الوقائع وتواريخها .

ففى سنة ٨١٢ هاجم المغاربة لمبيدوزا Lampedouza وبوتزا وإيشيا على الشواطىء الإيطالية ، وتغلبوا على ما حاوله أهل أمالفى وغايته من ردهم .

وفى سنة ٨٣٦ شن أهل المغرب وصقلية حملة كبرى على جنوبى إيطاليا ، واحتلوا برنديزى Brundisium سنة ٨٣٦ وملكوا هذا البلد ثلاثين سنة من ٨٤٠ إلى ٨٧٠ . وفى سنة ٨٣٦ هاجموا نابلى وحاصروها دون جدوى . وفى سنة ٨٣٧ قاموا بغزوة كبيرة اجتاحوا فيها إقليم قلورية Calabtia كله ، وخربوا مدينة كابوا Capua سنة ٨٤٠ ، واحتلوا بنفنتو Benevent وحكموها خمس سنوات ٨٤٢ــ٨٤٧ ، وتخلصت منهم لفترة قصيرة

عادوا إليها بعدها ، واستولوا على ثارنت Tarentum وحكموها أربعين سنة ٨٤٠ــ ٨٨٠ ، واحتلوا كذلك بارى سنة ٨٤١ وظلوا فيها إلى ٨٧١ ، وغزوا روما وخربوا بعض أجزاء من كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦ ، وفيما بين سنتى ٨٧٦ ، ٨٧٧ قاموا بغارة شديدة على ولاية كمبانيا Campagna ، وفى سنة ٨٨٣ تقدموا شمالى روما ووصلوا إلى مونت كاسينى وخربوها . وفى نفس الوقت نزلت جماعة من مهاجرة البحر الأندلسيين شاطىء إيطاليا الشمالية الغربى واجتاحت نواحى كثيرة من شمالى إيطاليا ووصلت إلى جبال الألب .

وفى سنة ٨٠٩ بدأ الأندلسيون فى غزو قرصقة وسردانية ، وكانت الأولى تابعة للبيزنطيين والثانية للفرنجة .

وفى سنتى ٨٣٤ و٨٣٥ هاجم أسطول أغلبى خرج من صقلية جنوة وخربها ، وغزا أسطول الأغالبة من المغرب وصقلية قورصقة وسردانية مرة أخرى وثبتت أقدام الأغالبة فيهما إلى سنة ٨٣٠ ، ثم انتقلت إلى طاعة الفاطميين حتى سنة ١٠٠٣ ، ثم صارت إلى الأندلسيين وظلت فى أيديهم إلى سنة ١٠١٦ حيث بدأت قوات جنوا وبيزا المتحدة تهاجمها ، ولم تستخلصها من أيدى المسلمين إلا فى سنة ١٠٥٠ .

وفتح الأغالبة مالطة سنة ٨٢٤ وظلت فى أيدى المسلمين إلى سنة ١٠٩٠ حيث انتزعها منهم النورمان .

وفى سنة ١٣٠ــ ٧٤٨ فتح والى إفريقية عبدالرحمن بن حبيب جزيرة قوصرة المعروفة ببنتلرية Pantelleria ، وثبت قدم الإسلام فيها بعد أن حاول ذلك قبله عبدالملك بن قطن الفهرى والى الأندلس وحبيب بن أبى عبيدة الفهرى . وقد ظلت فى أيدى المسلمين حتى استولى عليها منهم رجار (روجر) النورمانى سنة ٤٨٤ــ ١٠٩١ . وقد كانت قوصرة طول سيطرة المسلمين عليها كالدرع يقى تونس من غزوات النصارى والنورمانيين

خاصة . فلما سقطت صقلية فى يد أولئك الأخيرين لم يبق إلا قوصرة تحمى شواطىء تونس ، فلما سقطت هى الأخرى انحدرت الجبهة الإسلامية إلى شواطىء تونس وتعرضت سواحلها لغارات النورمانيين ، وحاول رجار مهاجمة «المهدية» أكبر المراكز البحرية الإفريقية إذ ذاك ، فنزل إلى الساحل وحاصرها سنة ٥١٧ ــ ١١٢٣ ولكن جيوش بنى زيرى ثبتت له وهزمته فى موقعة «الديماس» . وجدد النورمان محاولتهم سنة ٥٤٢ ــ ١١٤٨ واستولوا على «المهدية» ، ذلك الحصن الإسلامى ، فانهارت جبهة المقاومة الإفريقية ، وزاد الطين بلة اضطراب أمر المغرب كله عقب غزوة العرب الهلالية ، فطال أمد احتلال النورمانيين لشاطىء إفريقية (تونس) ، وقد صدق الأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب حين علق على ذلك بقوله : «وكان ذلك آخر عهد السلطان الإسلامى بجزائر البحر» .[1]

هذه صورة مجملة لنشاط أهل المغرب فى حوض البحر الأبيض الأوسط والبحر التيرانى ، وهى تعطينا فكرة عن هذا الجهد العظيم الذى قاموا به ، وهو جهد غير منظم ولا متصل لأن الدول الرسمية لم تعن به ، ولم تنتبه إلى ما يعود عليها من الخير من وراء السيطرة على البحر ، حتى صقلية لم يعنوا بها العناية الواجبة فضاعت من أيدى المسلمين وانصرفوا عنها وزالت آثارهم منها كأنهم لم يفتحوها يوماً ، إنما معظم الفضل فى ذلك الجهد يرجع إلى المغامرين وذوى البأس والمتحمسين من أهل شواطىء المغرب ومسلمى صقلية ، وهؤلاء من الممكن أن يكونوا خالصى النية فى الجهاد أو مجرد طامعين فى الغنم والسلب ، ومن هنا انفتح على المسلمين باب الاتهام بأعمال القرصنة ، وسنناقش ذلك فيما بعد .

وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن دول المغرب بطبيعتها ضعيفة فقيرة ، لقلة القوى البشرية والموارد اللازمة لإقامة الدولات والصمود فى ميدان ثقيل

---

(١) حسن حسنى عبدالوهاب : قصة جزيرة قوصرة العربية ، المجلة التاريخية المصرية ، ج ٢ ، عدد ٢ ، سنة ١٩٤٩ ، ص٥٥ وما بعدها .

التكاليف كثير المطالب كسيادة البحر أمام دول أغنى وأقوى وأدرى بأمور البحر ، وإن الإنسان ليتأمل هذا الجهد المتعدد النواحى الذى قام به أهل المغرب على عسر ظروفهم واضطراب أمور السياسة فى بلادهم فلا يسعه إلا التعجب من اقتدارهم عليه رغم ذلك كله . وسوف يتغير مركز المغرب عندما تدب الحياة فى أقصاه ــ ما يعرف الآن بمراكش ــ ويتسع مداه حتى يصل إلى أحواز النيجر وتدخل الأجناس البشرية الكثيرة الضاربة هناك رحاب الإسلام وتنتظم ضمن قواه ، هنا يتغير وجه التاريخ المغربى ويأخذ فى طريق القوة ، فيصبح درع الجبهة الغربية الإسلامية كلها ويتولى الدفاع عنها فى البر والبحر بعد انهيار الأندلس وخروجه من الميدان . وهذا كله يتمثل لنا فى قيام دول المغرب الأربع الكبرى : المرابطين والموحدين والحفصيين ــ وقد قاموا على أكتاف صنهاجة ــ ثم بنى مرين ، وهم زناتيون ، لكن ذلك يتخطى الحدود الزمنية التى رسمناها لهذه الدراسة : ما قبل الصليبيات .

ونعود إلى ما استطردنا عنه منذ قليل ، لنعرض فى إيجاز لتطور العلاقات بين إفريقية وأمم أوروبا النصرانية بعد ما كان فى انهيار الجبهة البحرية للأولى وتراجع مدى سلطانها إلى ما يسمى فى عرفنا الحديث بالمياه الإقليمية المغربية .

وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر سنة ٩٧٢م . قامت بشئون إفريقية دولة بنى زيرى الصغيرة ، وفى عهدها فقد المسلمون مراكزهم فى البحر الأبيض شيئاً فشيئاً ، ولم تصبح عملياتهم الحربية فيه عمليات منتظمة تهدف إلى غاية ثابتة ، بل ضربات هنا وهناك يقوم بها أهل إفريقية حيناً وأهل صقلية حيناً آخر وأهل الأندلس حيناً ثالثاً ، وهكذا . ومثال ذلك أن أهل إفريقية غزوا كاجلياري وبيزا سنة ١٠٠٢ ، وبعد ذلك بثلاث سنوات قام مجاهد الدانى صاحب الجزائر الشرقية ــ وهى جزائر البليار ــ ونهب بيزا ، وفى نفس العام انتقم البيزيون لأنفسهم فغزوا شواطىء الأندلس ، وفى سنة ١٠١١ قام

الأندلسيون بغارة عنيفة على بيزا . وفى هذه الفترة نجد اسم مجاهد الدانى بارزاً فى تاريخ وسط البحر الأبيض وغربه ، وكان أولى بنا أن ندع الكلام عنه إلى الفقرة الخاصة بالأندلس ، ولكن سياق الحديث يستدعى ذكر أعمال مجاهد الدانى فى هذا المقام .

وهنا أيضاً نلاحظ ما لا حظناه أكثر من مرة فى دراستنا لأعمال المسلمين فى البحر ، وهو أن المصادفة تلعب دوراً هاماً فيها ، وكما فتح بنو الأغلب صقلية مصادفة واضطراراً فكذلك دخل مجاهد الدانى ميدان الكفاح البحرى . فقد كان الركن الجنوبى الشرقى من الأندلس قد صار عند تفرق أمر الأندلس إلى جماعة من صقالبة بيت المنصور محمد بن أبى عامر المعروفين بالصقالبة العامريين ، ثم تقلص أمرهم أثناء الكفاح الطويل بين الطوائف حتى لم يعد بأيديهم إلا دانية . وضاقت أرض الأندلس بهم وخصومهم يحيطون بهم من كل ناحية ، ففكر واحد منهم وهو مجاهد الدانى العامرى فى الاستيلاء على الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار ، فانتقل إليها بقواته سنة ١٠١٥ ومكن لنفسه فيها واتخذها ـــ مع دانية ـــ مركزاً لنشاط بحرى كبير جعل اسمه يبعث الرعب فى الحوض الغربى للبحر الأبيض كله .

وقد فتح المسلمون هذه الجزائر لأول مرة سنة ٩٠٣ على يد عصام الخولانى ، كما سنرى بعد . وكانت قبل ذلك تابعة لدولة الفرنجة ، وقد فتح عصام ميورقة ومنورقة وبقيت يابسة Juiza بيد الفرنجة . وقد ظل عصام يحكمها باسم خلفاء بنى أمية الأندلسيين حتى مات وخلفه عليها ابنه . ولم يعن الأمويون بالجزائر الشرقية على أهميتها ، فظلت فى تبعيتهم الاسمية حتى انتثر عقد الخلافة وتفرق أمر الأندلس بين أمراء الطوائف واستقل العامريون بشرق الأندلس ، ثم سنحت الفرصة لمجاهد فغزاها سنة ١٠١٥ كما قلنا .

وقد تمكن هذا الصقلبى الأندلسى أن يسيطر على شواطىء الأندلس الشرقية ، ويملك الجزائر الشرقية ويحتل أجزاء من سردانية وقرصقة سنة

١٠١٦ ويوجه نشاطه كله إلى غزو سواحل إيطاليا وغالة ، بل إنه احتل ثغر لونى Luni على خليج سبيزيا Spezzia فى إقليم إتروريا بإيطاليا ، واتخذه قاعدة لأعماله الحربية فى إيطاليا . وقد توفى مجاهد سنة ١٠٤٥ وخلفه ابنه على ، فواصل سياسة أبيه ولكنه لم يستطع مواصلة الجهد أمام منافسات الطوائف ، فاستولى بنو هود على ما بيده .

. وقد نشطت البابوية فى جمع قوى النصارى وتوجيهها لحرب مجاهد الدانى ورجاله ، وأصدر البابا يوحنا الثامن عشر منشوراً بابوياً يعلن فيه أنه يمنح جزيرة سردانية لمن يستخلصها من يدى مجاهد . وبعد ذلك بسنوات قلائل خطا البابا بنوا الثامن خطوة أخرى ، فقام بتجهيز حملة دفعت الخزانة البابوية نفقاتها وهدفها مهاجمة قاعدة مجاهد فى لونى ، فاجتهد الجنويون والبيشيون فى الاستيلاء عليها وتم لهم ذلك سنة ١٠١٥ . وفى السنة التالية ١٠١٦ وفق البابا بنوا فى عقد محالفة بين بيشة وجنوا توقفت بها العداوة بين الجمهوريتين إلى حين ، واتجهتا لحرب المسلمين واستخلاص السيادة على البحر التيرانى من أيديهم . وسارت قوات جنوة وبيشة المتحدة وهاجمت سردانية فى نفس العام وهزمت مجاهداً هزيمة حاسمة ، وقد تقلص نفوذ المسلمين من هذه الجزيرة فى سرعة بعد ذلك ؛ لأن مجاهداً عاد إلى دانية ولم يحاول مطاولة بيشة وجنوة . وبعد وفاته سنة ١٠٤٤ــ١٠٤٥م كاد يتلاشى كل أثر لسيادة المسلمين على سردانية ، لولا وقوع الخلاف بين جنوة وبيشة ، فقوى أمر المسلمين فى الجزيرة من جديد .

واستمر الأمر سجالا بين المسلمين والنصارى فى ذلك الحوض الغربى للبحر الأبيض طوال القرن الحادى عشر ، فنجد أسطولا إسلامياً يخرج من «المهدية» ويغزو إيطاليا الوسطى سنة ١٠٢٠ ويجمع غنائم وافرة ، وفى عودته لقيه أسطول بيشى واستولى على ما معه من الغنائم . وفى سنة ١٠٣٤ نجد قوات جنوية وبيزية وبروفنسية تهاجم بونة فى إفريقية وتجتاح هذه الناحية وتعيث فيها فساداً ، وهكذا . ويستمر الأمر على ذلك الحال حتى

يقوم البابا ليو التاسع بتوحيد البيشيين والجنويين من جديد ، ويوجههم إلى استخلاص سردانية من أيدى المسلمين ، وقد تم ذلك نهائياً سنة ١٠٥٠ ، وكان ذلك هو الخطوة الأولى لضياع سيادة المسلمين على غرب البحر الأبيض .

وأصبح واجب الدفاع عما بقى من سيادة المسلمين على غرب البحر الأبيض ملقى على عاتق بنى زيرى أصحاب إفريقية وبنى حماد أصحاب القلعة ، وكانت لهم السيادة على جزء كبير من الجزائر . ولم تكن الدويلتان من القوة بحيث تستطيعان القيام بهذا العبء ، وكثرت غارات النصارى على صقلية وسواحل إفريقية ، فرأى بنو زيرى أنفسهم مضطرين إلى تغيير خطة العداء السافر ، ودخلوا فى علاقات سلمية مع الجمهوريات الإيطالية والبابوية ثم مع النورمان بعد ذلك .

وليس إلى الشك سبيل فى أن بنى زيرى كانوا مستطيعين أن يقوموا فى البحر بدور عظيم ، فقد كان لهم بالساحل اهتمام كبير ، لولا اضطرارهم إلى توجيه كل قواهم إلى محاربة الزناتيين أولا والعرب الهلالية ثانياً .

ومن دلائل اهتمامهم بالبحر وشئونه أن زيرى بن مناد هو الذى أنشأ مدينة الجزائر ، وقد كان موقعها والجزائر المقابلة لها فى البحر فى زمام قبيلة بنى مزغنا ، ولذلك كانت تسمى «جزائر بنى مزغنا» ، ثم اختصرت بعد ذلك إلى «الجزائر» . وقد أنشأ أبناء عمهم بنو حماد ــ أصحاب قلعة بنى حماد وسادة المغرب الأوسط ــ ميناء آخر هاماً سيلعب دوراً عظيما فى تاريخ البحر الأبيض ، وهى بجاية Bougie أنشئوها سنة ١٠٧٢ وظلت معتصمهم ومعتصم فلول بنى زيرى جميعاً بعد هزائمهم وانهيار قواهم أمام الهلالية . وقد ظل بنو حماد محتفظين بشىء من سلطانهم فى بجاية حتى فتحها عليهم الموحدون وأدخلوها فى طاعتهم .

وقد وصلت سياسة الصداقة مع الجبهة النصرانية ذروتها فى عهد الناصر ابن علفاس خامس أمراء بنى حماد أصحاب القلعة ، فقد ارتبط بعلاقات صداقة موصولة مع البابا جريجورى السابع ، وسمح له بإقامة أسقف لقرطاجنة وأكرم النصارى فى بلاده ، بل جمع من كان فيها من أسرى النصارى وردهم إلى بلادهم . وقد كتب إليه جريجورى خطاباً يدل على ما كان يكنه نحوه من تقدير ، ويكشف لنا عن جانب من جوانب سياسة هذا البابا الكبير ، بدأه بقوله :

«من الأسقف جريجوريوس خادم	Gregorius, episcopus servus
خدام الله إلى الناصر ملك	Servorum Dei, Anazir, regi
مرطانية من الولاية السطيفية	Mauretaniae Sitiphiensis
فى إفريقية ، السلام	Provinciae, in Africa, Solutem
والبركة الرسولية[1]	Et Apostolicam benedictionem

بيد أن الجبهة الإسلامية زادت ضعفاً بعد دخول العرب الهلاليين المغرب وقضائهم على دولة بنى زيرى . ويبدو أن الجمهوريات الإيطالية كانت ترقب حوادث المغرب بعين اليقظة ، ففى سنة ١٠٥٧ ــ وبينما الهلاليون يحاصرون المعز بن باديس فى المهدية ــ اقتحمت عمارة إيطالية الميناء وحاولت دخوله ، وبعد ذلك بثلاثين سنة ــ أى فى سنة ١٠٨٧ ــ اقتحم البيشيون هذا المعقل الإسلامى الحصين وخربوا البلد . وقد كان لهذا الحادث دوى عظيم فى نواحى أوروبا ؛ لأن المهدية كانت مركزاً للعمليات الحربية الإسلامية كلها كما قلنا . وفى سنة ١٠٦٣ هاجم البيشيون بلرم فى صقلية

---

(١) Mas Latrie, op. cit. Document VII, pp. 7-8.

وكان الناصر قد اختط بجاية سنة ١٠٧٦ وجعلها عاصمة إمارة بنى حماد بدلا من القلعة فى سنة ١٠٩٠ . ومن بجاية سيطر على المغرب الأوسط كله ، وهو الذى يعرف فى التقسيم الإدارى الرومانى بمرطانية السطيفية Mauretania Setifiensis ، وإلى هذا يشير جريجورى فى مستهل خطابه . وقد ظل بنو الناصر سادة بجاية والمغرب الأوسط حتى استنزلهم الموحدون وحلوا محلهم سنة ١١٥٣ .

ونهبوها نهباً ذريعاً ، وقد تيمنوا بهذا الغنم فبدءوا بناء كاتدرائية بلدهم الباقية إلى اليوم من مغانم هذه الغزوة .

وبدا بوضوح أن ما بقى من الجبهة الإسلامية فى وسط البحر الأبيض وغربه يتصدع تماماً ، وكان العامل الأكبر فى هذا التصدع هو فشل أهل إفريقية فى حكم صقلية من ناحية ، وعجز مسلمى صقلية عن تنظيم أمور أنفسهم وتوحيد جبهتهم من ناحية أخرى . وبعد أن انتقل الفاطميون إلى مصر بدا بوضوح أن أمر الإسلام فى صقلية إلى ضياع ، فقد اشتد التفرق بين المسلمين الصقليين إلى درجة خشى معها المعز بن باديس الزيرى من أن يستغلب النصارى الجزيرة ، فأرسل حوالى سنة ١٠٣٥ حملة لتقوية أهل صقلية أمام أعدائهم . وقد بلغ من قصر نظر رؤساء صقلية أن أنكروا هذا العمل من المعز وتوجهت جماعة منهم فقابلت ملك النورمان فى أيوليا واستنصرت به على المعز ! وكان النورمان قد انتزعوا جنوبى إيطاليا من أيدى البيزنطيين وتطلعوا إلى صقلية . وفى سنة ١٠٦١ عبرت قوة استطلاعية نورمانية خليج مسينا ونزلت صقلية عند ميلازو ، وتغلبت على قوة صغيرة من المسلمين حاولت أن تعترض طريقها . وكان يقود هذا البعث رجار أخو روبرت جسكارد ملك النورمان ولم يكن لديه أكثر من مائة وستين فارساً . وقد شجعه هذا النجاح فعاد إلى قلورية Calabria وجمع قوة كافية ونزل صقلية فى العام التالى ، واستولى على مسينا دون مقاومة تذكر ، ثم استولى على السواحل الشمالية والشرقية للجزيرة . وفى العاشر من يناير ١٠٧٢ استولى على يلرم عاصمة صقلية ، وتم له إخضاع بقية الجزيرة بعد ذلك . وصارت كونتية نورمانية يحكمها رجار باسم أخيه روبرت . وقد حاول تميم ابن المعز بن باديس أمير إفريقية استعادة الجزيرة دون جدوى ، واضطر آخر الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع ، وعقد مع روجر معاهدة اعترف له فيها بملكية صقلية .

بهذا ضاعت هذه القاعدة الإسلامية الكبرى التى كانت تمكن المسلمين من القبض على ناصية البحر الأبيض ، وأصبحت حدود دولة الإسلام الغربية عند شواطىء إفريقية ، وعاد الحوضان الأوسط والغربى للبحر الأبيض إلى منطقة النفوذ الأوروبية ، وأصبحا طريقاً آمنة للجمهوريات الإيطالية ، واتسعت آمال شعوب غربى أوروبا فى مهاجمة المسلمين فى بلادهم ، وخاصة بعد تصفية الجزء الأكبر من الأندلس . وذلك كله يرسم لنا مقدمات الحروب الصليبية ، التى بدأت فى الجبهة الأندلسية ثم انتقلت إلى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، ثم امتدت بعد ذلك إلى بلاد المسلمين فى المشرق .

هذا هو تاريخ المسلمين فى حوض البحر الأبيض إلى قبيل الحروب الصليبية ، وقد ألممت بما كان لسيادة المسلمين على مياه هذا البحر من تأثير على الدول الإسلامية عامة وعلى مصر والشام والمغرب كل على حدة . ولم أتعرض للحقيقة الكبرى التى نتجت عن ذلك وهى تحول هذه البلاد كلها إلى بلاد إسلامية الدين عربية الثقافة ، تفصل بينها وبين أمم الشواطىء الشمالية لهذا البحر عوامل العقيدة والثقافة واللغة والاتجاه ، فقد حل الإسلام فيها كلها محل النصرانية وغيرها ، وأصبحت العربية لغتها الأساسية الغالبة على أهلها .

ولم أقف عند تلك النتيجة الكبرى ؛ لأنها أظهر من أن نبدى فيها ونعيد . ولم أقف كذلك عند آثار استيلاء المسلمين على الأندلس على البحر الأبيض ؛ لأن مسلمى الأندلس لم يتطلعوا إلى سيادة البحر إلا أيام مجاهد الدانى ، أما طوال عصرى الإمارة والخلافة فقد كانت عناية الأندلسيين بالبحر عناية دفاع لا عناية غزو . وقد أنشأت الإمارة الأموية القرطبية أسطولها بعد نزول النورمان شواطئها على أيام عبدالرحمن الأوسط ، ولم يهتم الأندلسيون بمغازاة شواطىء أوروبا أو بالمتاجرة معها ، بل اقتصر نشاطهم التجارى والحربى أيضا على بلاد المغرب وما قام فيه من دول ، والفاطميين

خاصة . ومن هنا لم يكن للأندلس أثر كبير على الموقف العام فى البحر الأبيض ، فيما خلا ما هو ظاهر بداهة من تحول الشواطىء الإسبانية إلى شواطىء إسلامية متصلة بالعالم المغربى والمشرق منقطعة عن الشواطىء الأوروبية .

ل ــ الأندلسيون والبحر الأبيض :

لم يحاول أمراء قرطبة الأمويون الإدلاء بدلوهم فى شئون الملاحة فى البحر الأبيض ، بل لم يفكروا فى إنشاء أسطول لدولتهم إلا بعد أن فاجأها النورمانيون بغزواتهم على عهد عبدالرحمن الأوسط ، فاجتهدوا فى بناء السفن وترتيب الأسطول فتم لهم ذلك بأيسر مئونة . وبعد سنوات قلائل ، عندما أعاد النورمانيون الكرة وأرادوا مهاجمة الأندلس فى سنة ٢٤٥/٨٥٩ــ ٨٦٠ «وجدوا البحر محروساً ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط إفرنجة إلى حائط جليقية فى الغرب الأقصى ، فتقدم مركبان من مراكب المجوس ، فوافوا هذين المركبين فى بعض كور «باجة» فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبى والعدة» . والواقع أن المراجع تؤكد اهتمام عبدالرحمن الأوسط بإنشاء دور الصناعة ومخازن السلاح «بعد سنة المجوس» كما سنرى فى قرمونة ، وأنشئت على سواحل الأندلس الرباطات وانجفل إليها المرابطون والمتطوعة ليرابطوا حرساً على شواطىء المسلمين . وأنشئت فى إشبيلية دار صناعة كبيرة ، ونهضت البحرية الأندلسية نهضة سريعة مردها إلى استعداد أهل شواطىء الأندلس للخدمة فى البحار ، فقد كان للأندلس قبل ذلك التاريخ نشاط بحرى ، ولكنه غير رسمى ، نشاط لا تحدثنا عنه مراجعنا العربية وإنما نجد صداه فى المراجع اللاتينية .

فتحدثنا «حوليات مملكة الفرنجة» أنه فى سنة ٧٩٨ هاجمت جماعة من المسلمين ــ تصفهم بأنهم قراصنة ــ جزيرتى ميورقة ومنورقة ونهبتهما ،

وفى الوقت نفسه يحدثنا إجنهارت فى «حياة شرلمان» أن شرلمان اتخذ إجراءات لحماية شواطىء ولايتى نربونة وسبتمانية من غارات المسلمين .

ومن المناسب هنا أن نذكر فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) ، فإن بعض المراجع تذهب إلى أنها فتحت على يد عبدالعزيز بن موسى بن نصير ، ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك . والغالب أن جماعات من المسلمين نزلتها وسكنتها شيئاً فشيئاً ؛ لأن المراجع تحدثنا أنه قامت فى الجزائر ثورة سنة ٢٣٤ ــ ٨٤٨ ــ ٨٤٩ على المسلمين ، فأرسل عبدالرحمن الأوسط أسطولا من ثلاثين قطعة أخمد الثورة وأعاد الجزيرة إلى الطاعة . ويبدو أن هذه الحملة لم تكن غزواً بالمعنى الصحيح لأن أبا عبيد البكرى وابن خلدون يذكران أن فتح هذه الجزائر كان فى عهد الأمير عبدالله ابن محمد سابع أمراء المروانيين بالأندلس على يد رجل أندلسى يسمى عصام الخولانى سنة ٢٩٠/٩٠٣ وكان رجال الأسطول والفاتحون جميعاً من المطوعة والمرابطة ، وهذه ملاحظة لها أهميتها ؛ لأنها تدل على أن معظم رجال البحرية الأندلسية كانوا من أولئك المرابطين والمجاهدين ، مما يؤكد ماذكرناه من نشاط مرابطة الأندلس البحرى ، ويجعلنا أميل إلى الظن أن الأمير عبدالله عندما أنشأ البحرية اعتمد فى ذلك على أولئك المجاهدين . وكان عددهم فى الغالب كبيراً . وقد أتم عصام الخولانى فتح الجزر وبنى فيها المساجد وحكمها باسم الأمير عبدالله ثم خلفه عليها ابنه عبدالله بن عصام وأقره الناصر فى حكمها . وقد ظل يحكمها حتى سنة ٣٥٠/٩٦١ حين اعتزل الحكم وخرج إلى مكة حيث قضى بقية حياته ناسكاً ، مما يؤكد مرة أخرى غلبة الروح الدينى على مجاهدة البحر الأندلسيين .

وكانت سواحل الأندلس الغربية عامرة بالنشاط من أول الأمر ، وكانت السفن رائحة غادية بين ثغور الجنوب الشرقى مثل لقنت والمرية والنكب وبلاد العدوة الإفريقية مثل نكور ومرسى فروخ وهى الميناء الرئيسية لدولة

بنى رستم أصحاب تاهرت . أى أن النشاط البحرى الإسلامى أخذ وجهتين : وجهة سلمية هدفها النقل والتجارة مع بلاد إفريقية ، ووجهة حربية هدفها مهاجمة الشواطىء الأوروبية . وقد كان النشاط فى كلتا الوجهتين عظيماً كما يفهم من المراجع . ومن الثابت أن معظم الملاحين كانوا من المولدين والمتعربين والبربر .

وقد نشأت على طول الساحل الشرقى للأندلس ثغور عامرة بالنشاط احتشدت فيها جماعات من الملاحين والتجار والمرابطين ، وكانت أعمر المناطق ـــ كما يفهم من جغرافية البكرى ـــ هى الواقعة بين ألقنت Alicante وأكيلة Aquila ، وكانت أهم تلك المراكز البحرية اسكمبرة Escombera وهى على جزيرة فى البحر فى مدخل خليج قرطاجنة الأندلسى التى تعرف بقرطاجنة الخلفاء . وكانت هذه الجماعات منظمة تنظيماً يذكرنا بنشاط المدن التجارية الإيطالية فى أول نشأتها ، فكان التجار والملاحون ينظمون أنفسهم جماعات جماعات تعمل معاً ، وكانت كل جماعة تعقد الاتفاقات مع بربر الشاطىء الإفريقى للنزول فى أرضهم فى أمان والحصول منها على المتاجر التى تريد .

وكان الأندلسيون يبحرون إلى إفريقية فى الخريف ، ويقيمون هناك الشتاء ويعودون إلى الأندلس بالمتاجر مع الربيع . وكانت جماعات التجار فى كل ميناء فى الأندلس تختار من بينها «عريفاً» يمثلها يقيم لدى القبائل البربرية لينظم أمور التجارة كما كان قناصل المدن الإيطالية يفعلون فى الموانى . وكانت جماعات من تجار الشواطىء الإسبانية تهاجر إلى إفريقية وتعمر ثغورها أو تنشىء ثغوراً جديدة ، ففى سنة ٨٧٥/٢٦٢ أنشأ نفر من الأندلسيين ميناء يسمى تِنِس الجديدة على مقربة من تنس الإفريقية ، وفى سنة ٩٠٢/٢٩٠ نزلت جماعة أندلسية أخرى على رأسها رجل يسمى محمد ابن أبى عون بن محمد بن عبدون ميناء وهران وعمرته وبعثت فيه النشاط ، وهكذا .

وكان يحدث أن القبائل الإفريقية تعدو على المستعمرة الأندلسية وتنهبها ، فيحتل الأندلسيون الموقع بالقوة ، كما حدث فى وهران سنة ٢٩٩/٩١١ . بل يذكر البكرى أن الأندلسيين كانوا مسيطرين على عدد كبير من ثغور إفريقية مثل بونة وبجاية ومرسى الدجاج .

م ــ بجّانة ، جمهورية بحرية إسلامية أندلسية :

وألطف مثل لهذا النشاط البحرى الأندلسى هو اختطاف نفر من «البحريين» لميناء بجّانة المعروفة اليوم باسم Pechina. وأصل هذا الميناء موضع بسيط على الساحل الأندلسى الجنوبى على مصب وادى أندرش Rio Andaray شرقى المرية . وكان الأمير عبدالرحمن الأوسط قد عمد إلى جماعة من العرب اليمنيين النازلين فى هذه الناحية بأن يرابطوا على الساحل ويحرسوه من نزول المجوس (النورمانيين) ، وفى مقابل ذلك أقطعهم سهل وادى أندرش الأدنى . وكانت جماعات من «البحريين» الأندلسيين تخرج من المرية إلى إفريقية وتعود إليها . ويبدو أن العرب اليمنيين اعتدوا عليهم أو آذوهم فى تجارتهم ، فرأى هؤلاء أن يتفقوا مع العرب على أن يبتنوا لأنفسهم قصبة ومخازن لمتاجرهم عند خليج بجانة ويسمى بلغة الأندلسيين «مرية بجانة» . وأذن لهم العرب فقاموا بإنشاء القصبة ونظموا لأنفسهم حكومة يختارون رجالها من بين أنفسهم كما كانت الجمهوريات الإيطالية تفعل . وقد بدأ أولئك «البحريون» فى بناء مدينتهم وتنظيم أنفسهم من عام ٢٧١/٨٨٤ ، بل يذهب البكرى إلى أنهم حرصوا على أن تكون بلدتهم أشبه البلاد بقرطبة فى هندستها ، ومن ذلك أنهم وضعوا على باب بلدتهم تمثالا للعذراء يشبه ذلك الذى يقوم على مدخل قنطرة الوادى المؤدية إلى قرطبة ، وهذه الملاحظة تدل على أن نفراً من أولئك «البحريين» كانوا نصارى ، أقاموا حول بلدهم حصناً وبنوا لأنفسهم قصبة ومساجد ، وانجفل إليهم الناس وعمر البلد بالناس وقامت فيه مناسج الحرير . ومما يؤكد ذلك قول ابن حيان فى حوادث سنة ٢٧٦ :

«وفيها أيضاً خاطب البحريون ــ الذين اختطوا مدينة بجانة بالساحل القبلى ، واتخذوها قاعدة لهم فرضة لأهل العدوة من تلقائهم : عملوا ذلك آخر أيام الأمير محمد والده ، وتزايد عملهم فى تمهيدها من بعده ــ فكتبوا إلى الأمير عبدالله ، عند جلوسه فى الخلافة بعد ، يسألونه إقرار واليهم عليهم وإعفاءهم من غيره ، وإباحتهم البنيان حوالى قصبتهم بجانة والتوسع فى أعراضها لتكاثر الناس عندهم ، فأجابهم إلى ما سألوه من ذلك . فأوسعوا الاختطاط بأرض بجانة صدر خلافة عبدالله ، حتى اتخذوا بها عشرين حصناً ، مثل : وادى بجانة والحامة والخابية وبرشانة وعالية وبنى طارق وحصن ناشر ، وغيرها ؛ حموها وأوطنوها هم ومن نزل بهم ، وجاءهم الناس من كل جانب ، فأمنوا عندهم وكثروا ببلدهم» ، مما يدل على ازدهار البلد واتساعه .

ويحدثنا ابن حيان فى خبر آخر عن بعض أحوال بجانة ، وحديثة يدل على أن البلد كان يحكم نفسه بنفسه . وأن أهله كانوا يختارون منهم رئيساً يقوم بشئونهم ، وأن سفن النصارى كانت تحاول مهاجمة البلد وأذاه على غير جدوى ، وسأورد خبر بن حيان ــ على طوله ــ لأنه يلقى ضوءاً عظيماً على أحوال تلك «الجمهورية» التجارية الأندلسية ، قال :

«قال عيسى : وفيها غزا سوار بن حمدون المحاربى ــ أمير العرب بغرناطة من كورة البيرة ــ البحريين الذين اختطوا مدينة بجانة بأمر الأمير المنذر وأخيه الأمير عبدالله ، وقد بلغه حسن حالهم فيها واجتماع الناس إليهم واستخفافهم بمن جاورهم من العرب الغسانيين واستطالتهم عليهم وخوفهم منهم على أنفسهم لقلة عددهم ، فقصدهم سوار فى عرب البيرة المنتزين معه إلى حصن غرناطة ، طعماً فى انتهاز الفرصة منهم وإخراجهم عن موطنهم بجانة والانتصار لقومه الغسانيين منهم ؛ وكان عامل السلطان يومئذ على هؤلاء البحريين رجلا منهم اسمه عبدالرزاق بن عيسى ، قد طار له الاسم بحسن السيرة وجودة الضبط والحزامة مع الغلظة على أهل الشر والذعارة

والمبالغة فى عقوبة من ظفر به منهم ، حتى إن المسافرين عندهم كانوا يضعون أمتعتهم ورحالهم بالأسواق والشوارع مطروحة بلا حارس فلا يكاد يضيع شيء منها ، وذلك كان من أعظم أسباب اجتماع الناس إلى بجانة من الآفاق ، واغتباطهم بحلولها وسكونهم إلى ضبط أميرها عبدالرزاق وحمايته وتحصينه الفروج والأموال ، وسعيه فى توسعة الغارة فيما حول بجانة حتى قامت فيها حصون كثيرة وقرى آهلة فى «الأسناد» وفى «نشارة» وغيرهما ، وحافظ على رعاية من قصد بلده ورغب فى مجاورته ، فكثر الناس لديه واغتبطوا به وبجواره ، وحسده كثير ممن جاوره على حسن حاله ، فقصده سوار فى ذلك الوقت طمعاً فيه . فلما علم عبدالرزاق بخبره رهب شداته وذهب إلى مداراته ؛ فأخرج وجوه البحريين أصحابه إلى العرب الغسانيين جيرانهم ، يستذمون بذمة جيرتهم ويستصفحونهم عن إجرام سفهائهم ويتشفعون بهم إلى سوار ابن عشيرتهم ، ويسألونهم لقاءه واستلطافه لهم ووعظه فيهم ، والرغبة إليه فى الانصراف عنهم ومواثقته على إجمال عشيرتهم ، فأسعفهم الغسانيون بذلك ، وخرجت جماعة من وجوههم إلى سوار ، منهم : سعيد بن أسود ، وخشخاش ابنه ، ومحمد بن عمر بن أسود ابن أخيه ــ وكان مكفوفاً ــ وأبوه الأدهم بن مخلد الغسانى وغيرهم ، فلقوا سوارا وكلموه واستطلفوه حتى انصرف عنهم وهلك على نية ذلك . وصار مكانه سعيد بن جودى فعاد البحريون إلى التمرس بالغسانيين ــ الذين كانوا شفعاءهم ــ والتمرس بهم والتهويس بما كان منهم فى مدافعة سوار عنهم ، حتى استحال الغسانيون عليهم وأنفوا من استطالتهم ، فكتبوا إلى ابن جودى يشكونهم واستنهضوه لغزوهم ، وقصده بعضهم لما أبطأ عليهم محركاً ، فخف معهم وجاء إلى بجانة ــ وهى مدربة لم يضرب بعد عليها سور ــ فحاربهم فيها أياماً قاوموه فيها فلم يظفر بهم بطائل . وبينما هم على ذلك إذ احتل بهم شنير ــ قومس أنبورس من بلد الفرنجة ــ فى خمسة عشر مركباً أرفأت بساحل المرية فرضة بجانة ، فاحترق بها كثير من مراكبهم

وغيرها ، وانتشرت بالغارة هنالك حتى قتلت خلف بن زهرى بالحوض ، وكان من أعلامهم ؛ فخرج جميع البحريين نحو المرية ليلا ، فلما أشرفوا على المرية هابهم العلوج فانقبضوا وألووا إلى المتاركة ودعوا إلى المفاداة والمبايعة ، فأجابهم البحريون إلى ذلك . وتم صلحهم على يدى عبدالرحمن بن مطرف الحاج صاحبهم ، وكان منذ وقعت عين العلج شنير عليه ــ كان وسيماً جميلا حسن الملبس ــ فمال العلج إليه فأذنه وقلده عقد صلحه مع قومه ، وأجابه إلى ما التمسه وقارضه (Sic) فيما اشتهاه ، فانقضى ما كان بينهم وبين العلج من يومهم وانصرف عنهم بمراكبه ، ففزعوا لابن جودى ومن معه ــ وقد ظن بن جودى أن مدداً جاءهم ــ فرحل عنهم مسرعاً ولم يقم عليهم ، فثبتوا عزة بموطنهم . وقد طاولهم ــ بانصراف ابن جودى وانصراف صاحبه سوار قبله عنهم ــ اسم عظيم فى الباس والقوة رفع عنهم الطماعية ممن حولهم من ذباب الفتنة ، فكفوا فيما بعد عن التعرض لهم ، فضربت حاضرتهم بعطن وعمر قطينها وكثر أهلها واتسعت عمارتها وحسنت حال من فيها ، فلحقت بكبار أمصار الأندلس وحمت استعبادتها من قبل البحر فجل قدرها» .

وقد استمرت بجانة عامرة حتى سنة ٣٤٤/٩٥٥ عندما نقل عبدالرحمن الناصر عاصمة كورة المرية إلى ميناء المرية نفسها وعنى بها وأنشأ فيها المبانى والمصانع والمساجد ، فانتقل إليها الكثيرون من أهل بجانة وبدأت هذه الأخيرة تخمل ، وأخذ أمرها ينحط فى عهد الحكم المستنصر . وفى القرن الحادى عشر نجدها قد أصبحت قرية صغيرة وفقدت أهميتها .

ن ــ ماتسميه المراجع النصرانية بأعمال قراصنة المسلمين قبل الحروب الصليبية :

كان للأندلسيين إذن نشاط بحرى عظيم : كانت لهم أساطيل قوية تحرس الشواطىء حراسة يقظة دائمة ، وكانت لهم أساطيل تجارية تتاجر مع المغرب وتنقل الناس والبضائع إلى شواطئه ، وكانت لهم جماعات من مجاهدة البحر

تغزو شواطىء البلاد النصرانية وترد أذاها عن بلاد المسلمين . والمراجع اللاتينية تصف هذه الناحية الأخيرة من نشاط الأندلسيين البحرى بأنه نشاط قرصان ، وهو ــ فى الواقع ــ لم يكن كذلك تماماً . ومن المناسب أن أنقل هنا آراء للأستاذ ليفى بروفنسال تلقى ضوءاً على هذه الناحية الهامة من تاريخ المسلمين البحرى فى حوض البحر الأبيض الغربى ، قال بعد أن تحدث عن سفارة أرسلها أوتو الإمبراطور التيوتونى إلى عبدالرحمن الناصر سنة ٩٥٠ يسأله فيها أن يبذل جهده فى كف أذى «قراصنة» الأندلسيين عن شواطىء البحر الأبيض وغاراتهم على ما يلى هذه السواحل من بلاد فى غالة وشمالى إيطاليا وسويسرا :

ومن المناسب هنا أن نفتح شَوْلتين نذكر بينهما شيئاً عن نشاط قراصنة الأندلس فى البحر الأبيض خلال القرن العاشر ، وأن نتتبع ــ بوجه خاص ــ الأوديسية الفذة التى قام بها جماعة من غزاة البحر المغاربة ، الذين نزلوا عند فراكسينتوم Fraxinetum وأسسوا «دولة إسلامية غربية مقحمة فى صمد بلاد النصرانية» ، قدر لها أن تظل قائمة بضع عشرات من السنين قبل أن يتيسر القضاء عليها . ومن الواضح أنه من العبث أن نلتمس فى كتابات مؤرخى المسلمين عن هذه القرصنة ؛ إذ أنها لم تكن منظمة تنظيماً رسمياً ، أى أن الدولة الأموية لم تنظمها ، ولكنها كانت تتغاضى عنها بل تشجعها ، بخلاف القرصنة المغربية فى العصور الحديثة ، إذ أن دول المغرب كانت تنظمها وتشرف عليها . ومن الحق أن نقرر هنا أن الدويلات المسيحية كانت تقف نفس موقف الدولة الأموية من رعاياها الذين كانوا يغيرون على شواطىء المسلمين وسفنهم . ولم يكن قراصنة قطلونية وأمبورياس Ampurias وروسيون Rousillon بأقل خطراً على الملاحين الآمنين من قراصنة الأندلسيين ، بل إنهم لم يكونوا يعفون سفن النصارى إخوانهم من الأذى .

ومن المظنون أن قراصنة المسلمين كانوا شيئاً آخر غير المجاهدين المسلمين الذين كانوا يغازون النصارى بدافع دينى ، وكذلك لا تستطيع القرصنة

المسيحية أن تنسب نفسها إلى الكنيسة أو المسيحية . وقد كانت كلتاهما خطراً انضاف إلى أخطار الملاحة أثناء العصور الوسطى المتقدمة ، كانت نوعاً من القدر الذى يلاقيه راكب البحر فى تلك العصور . ولدينا ما يبرر القول بأن معظم أولئك الذين كانوا يقطعون البحر من المسلمين لم يكونوا من العرب أو البربر ، لقلة ما كان لدى هؤلاء الأخيرين من المواهب اللازمة لراكب البحر . ويغلب على الظن أنهم كانوا من المولدين أو من مستعربى الأندلس النصارى من رعايا خليفة قرطبة ، لا يتحدثون العربية وإنما لهجتهم الرومانية المعروفة بعجمية أهل الأندلس ، مثلهم فى ذلك مثل البحريين الذين أنشئوا اتحاد بجانة فى القرن التاسع . ولسنا نقول هذا على سبيل التبرير لأعمال قطاع البحر من المسلمين ، ولكننا لسنا نرى من العدالة أن نصف أعمالهم دون أن نذكر فى نفس الوقت أن المسيحية الوسيطة لم تخل من أمثالهم . ولا شك أن هؤلاء الأخيرين لم يبلغوا من العتو والصيت المرهوب ما بلغه أمثالهم من الأندلسيين ، ولكن أفاعيلهم كانت كثيرة أيضاً ، ويكفى أن تتصفح معاجم التراجم الأندلسية حتى تتبين أنهم كانوا يصيبون أهل الأندلس وينزلون ببيوتهم من الخراب والذعر والقتل ما يربو بكثير على ما كنا نحسبه عادة » .

وكانت مهاجمة السفن فى البحر وأسر من فيها ثم المساومة على فدائهم أمراً لا دخل فيه للملوك ، نصارى كانوا أو مسلمين . ولم يكن هؤلاء وأولئك ليهتموا بنزول القرصان على شواطىء ممتلكاتهم ، إلا فى الحالات التى يصبح هذا النزول صريحاً خطراً على أراضيهم . وكان لا بد لهم فى هذه الحالة أن يكون لديهم من القوة ما يستطيعون به مدافعة أولئك الطغاة . ولكن الغالب أن عبء هذه المدافعة كان ملقى على كواهل سكان الشواطىء أنفسهم . كان عليهم أن ينظموا أمور الحفاظ على أنفسهم وإلا تحملوا عواقب إهمالهم ، فكان عليهم أن يقيموا ما يلزم للحرس والحماية ، فينشئوا المراقب العالية ليكشفوا المقبل من البحر من بعيد ، وأن ينظموا جبهة بحرية

حقيقية ، وأن ينقلوا قراهم ومساكنهم إلى المرتفعات القريبة من الشاطىء واتخاذ ما يمكن للتحرز من أخطار البحريات المعادية . هذا كله كان قائماً على شواطىء المسيحية والنصرانية ، ولم يكن مع ذلك كافياً لرد أطماع أولئك الذين كان يعيشون من القرصنة » .

«فإذا لم يقنع أولئك القرصان بغنائم الضربات السريعة التى لا تدوم أكثر من ساعات ، وطمعوا فى التوغل فى داخل البلاد كان الخطر أشد وأعظم . وكان القرصان ينجحون فى هذا التوغل عن طريق دخول مصبات الأنهار والتصعيد فى مجاريها ، كما كان النورمانيون يفعلون ، أو النزول فى موضع من الشاطىء يختارونه مقدماً ، والاستيلاء على موضع حصين قريب يشنون منه الغازات على الأراضى المجاورة . وكان القراصنة نادراً ما يتبعون أسلوب النورمان ، أى دخول مصبات الأنهار ، وإنما كان الغالب أن يلجئوا إلى الطريقة الأخرى ، طريقة النزول على الساحل بالقوة والتحرز فى موضع حصين ، وكان ذلك يحتاج إلى جرأة ويتعرض صاحبه لخطر أشد . وهذا هو الذى فعلته جماعة من المغامرين نزلوا عند فراكسينتوم على شاطىء بروفانس وتحرزوا فى موضع هناك فى العشرات الأواخر من القرن التاسع الميلادى » .

س ــ أوديسية فراكسينتوم :

«وتحدثنا بضع فقرات من «حوليات سان برتان» Annales de Saint Bertin بأن نفرا من قراصنة المغاربة les Maures ــ وهذه هى التسمية التى كانت تطلق على قراصنة المسلمين إذ ذاك ــ دخلوا مصب نهر الرون وصعدوا فيه بضع مرات خلال النصف الثانى من القرن التاسع . ففى سنة ٨٤٢ وصلوا إلى قريب من آرل Arles ونزلوا فى موضع على شاطىء النهر . ومضوا ينهبون ما وصلت إليه أيديهم ، ثم عادوا إلى سفنهم ورجعوا أدراجهم دون أن يصيبهم أذى . وحدث هذا مرة أخرى سنة ٨٥٠ ولكن رياحاً

شديدة حالت بينهم وبين العودة إلى سفنهم فاستؤصلوا عن آخرهم . وفى سنة ٨٦٩ تمكنت جماعة أخرى من أولئك المسلمين من النزول والتحصن عند كامارج Camargue وتمكنوا من أسر «روتلاندوس» Rotlandus أسقف آرل ، وكان قد توجه لردهم على رأس قوة من المحاربين ، وقد مات الأسقف عقب أسره بقليل بينما كان آسروه يفاوضون فى أمر فديته ، فاحتالوا للحصول على الفدية رغم موته بإجلاسه ميتاً على كرسى لابساً ملابسه الكنسية وأنزلوه إلى البر على هذه الصورة وحصلوا على الفدية » .

ثم يورد الأستاذ بروفنسال بعد ذلك تفاصيل تلك المستعمرة الإسلامية فى فراكسينتوم : فيما بين سنتى ٨٩١ و٨٩٤ تمكنت جماعة من قرصان الأندلسيين ـــ فى ظروف لم نتوصل إلى الآن إلى معرفتها ـــ من النزول فى خليج سان تروبيز Saint Tropez على شاطىء بروفانس وتحصنوا فى جبل فراكسينتوم المطل على الخليج ، وهذا الموضع هو المعروف اليوم باسم جارد فرينيه Garde Frienet . ثم أقبلت جماعات أخرى من الأندلسيين وانضمت إليهم ومضوا يعبثون فى نواحى كونتية Frejus ينبهون ويحرقون ويقتلون ، ونهبوا كبرى مدنها ، ثم أوغلوا فى منطقة مرسيليا خربوا كنيسة سان فيكتور Saint Victor المشهورة ثم صعدوا مع نهر الرون ونشروا الرعب والخراب فى مقاطعتى فالنتان Valentin وفين Vienne . وفى السنوات الأولى من القرن العاشر امتد مجال نشاطهم حتى سفوح جبال الألب ، وأحرقوا دير فوفاليز Vovalaise على مقربة من سوز Suze ، وملكوا نواصى ممرات الجبال وتربصوا للسُّفار والحجاج الذاهبين إلى رومة ، وثقلت وطأتهم وكثرت أفاعيلهم فى ناحيتى أمبرن Embrundan وجزير يفودان Graisivan . وشجعهم هذا النجاح فتوغلوا فى الوديان الإيطالية دون خوف ، وخربوا دير أولكس Aulx وتوغلوا فى بيدمونت حتى أكى Acqui وأستى Asti .

وكان مركزهم فى سنة ٩٣٣ كما يلى : تقوم فرق صغيرة خفيفة منهم بضربات سريعة خاطفة فى الإقليم كله ، بينما تتحصن كتلتهم فى إقليم

فراكسينتوم الجبلى على مقربة من الشاطىء . وكانت مقاومة الأقاليم المصابة ضعيفة متقطعة أول الأمر ، ففى سنة ٩٣١ توجهت حملة نحو إقليم فرينية Freinet يؤيدها أسطول بيزنطى لم توفق فى شىء . فى سنة ٩٣٩ توغلت جماعات المسلمين فى جبال الألب حتى وصلت إلى سان جالن St. Gallen (فى سويسرا الحالية) ونهبوا كنيستها . وفى سنة ٩٤٢ توجهت ضدهم حملة جردها هوجو ملك إيطاليا وورومانوس ليكابينوس إمبراطور بيزنطة ، وكان حظها معهم أحسن من حظ الحملة الأولى ، ولكنها لم توفق فى طرد الأندلسيين من فراكسينتوم . ولم يتم إخراجهم من الإقليم إلا على يد أوتو إمبراطور ألمانيا ، فقد سار لحربهم سنة ٩٧٢ وأخرجهم من معتصمهم عند خليج سانت تروبيز» .

هذه هى قصة أولئك المغامرين الأندلسيين ، الذين قاموا بأجرأ محاولة قام بها المسلمون على شواطىء جنوب أوروبا الغربية على طول التاريخ ، وقد أسهبنا فى ذكرها لأنها تدل على قوة أولئك الغزاة البحريين ، ومقدار ما كانوا يستطيعون إنزاله من الأذى ببلاد أوروبا النصرانية . وحوليات التاريخ حافلة بأخبار الكثير من ضربات الأندلسيين والمغاربة على شواطىء أوروبا ، مما يأذن لنا فى القول بأنهم كانوا أنشط المسلمين فى حوض البحر الأبيض ، وأن بيرين مُحِقٌّ فيما ذهب إليه من أن هذا النشاط الإسلامى قد قضى على الملاحة تماماً فى مياه أوروبا الجنوبية الغربية . فقد استولى المسلمون كما رأينا على جميع الجزائر الواقعة فى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، وكان لهم نصيب فى فتح صقلية ، بل هم الذين فتحوا إقريطش على بعدها عن بلادهم ، ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا الشواطىء الإيطالية والغالّية كما رأينا .

بيد أننا لا يمكننا القطع بأن أولئك الغزاة كانوا أندلسيين فحسب ؛ إذ لا شك أن أهل المغرب قاموا بنصيب كبير فى هذا النشاط ، فهم الذين فتحوا

صقلية ، وهم الذين احتلوا جنوبى إيطاليا وقاموا بحملات كثيرة على بلاد إيطاليا الغربية ، بل وصلوا إلى أحواز روما ونهبوها ذات مرة ، وكانوا أول من غزا سردانية واستقر فيها ، قبل أن يفتحها مجاهد الدانى مع قرصقة ويقيم فيها حكماً إسلامياً نحو ثلاثين سنة ، كما رأينا .

obeikandl.com